بطريركية الروم الأرثوذكس المقدسية
ΠΑΤΡΙΑΡΧΕΙΟΝ ΙΕΡΟΣΟΛΥΜΩΝ
مطرانية الروم الأرثوذكس - الأردن

محبة اللّه تهزُّ الأَرض

الراهب ثيوكليتوس
الذي في دير ذيونيسيوس/جبل آثوس

ترجمة الايكونومس د. ابراهيم دبور

٢٠٢٠

محبة اللّه تهزُّ الأَرض

الراهب ثيوكليتوس
الذي في دير ذيونيسيوس/جبل آثوس

ترجمة الايكونومس د. ابراهيم دبور

مطرانية الروم الأرثوذكس
عمان - الأردن
٢٠٢٠

صاحب السيادة

المطران خريستوفوروس الجزيل الاحترام

تقديم

أبنائي المحبوبين بالرب،

ببركة الرّب، نضع بين أيديكم هذا الكُتيب الصغير في حجمِه والكبير في معانِيه ومرامِيه الرّوحية، الذي أراده الراهب الآثوسي ثيوكليتوس جوابًا روحيًّا على تساؤلات المؤمنين وغير المؤمنين، عن أسباب هذه الهزات العنيفة التي ضربت مدينة تسالونيك اليونانية. وهل إذا كانت هذه الهزات تعبيرًا عن غضب اللّه لأهل تلك المدينة بسبب خطاياهم ومعاصيهم، أم أنَّها مُجرد ظواهر طبيعية تحدث في كلِّ مكانٍ. ولماذا سمح أو يسمح اللّه بهذه المصائب أصلًا؟

فجاء الرَّد بهذا الكُتيب على تلك الأسئلة التي تخص إيماننا المسيحي باللّه، الكُلِّي الصلاح والكُلِّي القدّرة، في إطار حواري يُعبّر عن تواضع هذا الراهب الذي طلب المشورة الرّوحية لا الفلسفيّة من أبٍ روحيٍّ من الجبل المقدّس، مشهودًا له بالخبرة الرّوحية المستنيرة من الرّوح القدس.

إننا إذ نمرُّ في أيامٍ صعبةٍ من جرّاء جائحة الكورونا، وما تركته من آثار اقتصاديّة وإجتماعيّة وروحيّة، ليس على مجتمعِنا فحسب، بل على العالم بأسره. فقد لمسنا تشابهًا بين ما يطرحه هذا الكُتيّب وما بات يطرحه أبناء الكنيسة وبناتها من أسئلةٍ وتساؤلاتٍ عن الأسباب الرّوحية وراء هذا الجائحة. ولذلك رأينا من المناسب والمفيد روحيًّا أن يُترجم هذا الكُتيّب الثّمين إلى لغتِنا العربية، لما ينطوي عليه من أجوبةٍ روحيّةٍ شافيةٍ تَردُنا إلى أصالةِ إيماننا المسيحي الأرثوذكسي، والحياة المسيحية الحقَّة التي ملؤها الثّقة والرّجاء والمحبّة.

لقد كانت مسألة وجود الشَّر بشكليه الخُلقي والطبيعي من زلازلٍ وأوبئةٍ وأمراضٍ، من الأمور التي شغلت الفكر الديني والفلسفي على امتداد التاريخ البشري، ولا تزال مطروحة خاصة في زمن الحروب والمصائب والجوائح. ولقد تصدى آباء الكنيسة لهذه المسألة، منطلقين من الكتاب المقدس الذي يخبرنا بأنَّ اللّه كلُّه خيرٌ وكلُ ما خلقه حسنٌ، أي خيرٌ وجميلٌ. وأنَّ اللّه لم يخلق الشَّرَّ بل إنَّ الشّرَّ دخيلٌ علينا، وإنَّ الخير الذي أراده اللّه، هو أصلُ الوجودِ برمّته.

إن الكتاب المقدس يقول إنَّ الإنسان بفعل إرادته الحرَّة، هو من اختار الإبتعاد عن اللّه، فإضطربت علاقته مع اللّه ومع نفسه ومع أَخيه الإنسان، وتاليًا مع الطبيعة، فسقط مبتعدًا عن اللّه مصدر الخير والمحبة والصلاح. ولكن اللّه المُحب، وعد آدم وحواء منذ لحظة سقوطهما، بالمخلِّص الذي سيعيد العلاقة بين اللّه والإنسان إلى ما كانت عليه قبل

السقوط. وفي تجسد كلمة اللّه انكشفت لنا محبة اللّه اللامتناهية والتي تفوق كل عقل. إذ ارتضى متواضعًا أن يصير إنسانًا ليصير الإنسان إلهًا بالنعمة الإلهية. إن إلهنا بهذه المحبة الباذلة من أجل خلاص البشرية، لا يمكن أن نتصوره إلهًا غضوبًا ومعاقبًا بالأمراض والأوبئة والزلازل، بل هو إلهٌ رحيمٌ وأبٌ عطوفٌ ومحبٌّ للبشر، وهذا ما نتلوه ليلًا ونهارًا في الكنيسة. وعلى المسيحي أن يستجيب لمحبة اللّه بالتوبة والصلاة، فيتذوق سلام الملكوت السَّماوي وحلاوة حضور اللّه في حياته.

"محبة اللّه تهز الأرض" هذا هو عنوان الكُتيب الذي في مضمونه يجد القارئ المتبصر أن محبة اللّه تهزُّ الإنسان في العمق، لتوقظه من سُباته الرّوحي الذي فرضه عصرنا المادي وحضارتنا الاستهلاكية، التي لم تجعل مخافة اللّه رأس حكمتها، بل صار المال وتحقيق الأرباح أساس وغاية كل شيء. ولعل إحدى الدروس والعِبر من جائحة الكورونا هو

تذكير الإنسان، الذي وصل إلى التطور الهائل على صعيد العلوم والاتصالات والتكنولوجيا، أنَّه إنسانٌ ضعيفٌ مهما أوحى له عقله المُتفاخر بإنجازاته بغير ذلك. فالبشر بحاجة لبعضِهم البعض، وقبل ذلك هم أولًا بحاجة إلى اللّه. كما يقول المغبوط أُغسطين مناجيًا اللّه: "خلقتنا لذاتِكَ فلا راحةً لنا إلا فيك".

أَحبتي بالرب، إنَّنا في زمن جائحة الكورونا لا بد من الأخذ بكل سبل الوقاية حفاظًا على سلامة أجسادِنَا، ولكن، لا بدَ من الأخذ بسُبل الوقاية لأرواحِنا أيضًا، التي تَكمنْ في أَن نحيا حياة الكنيسة الأسرارية، وأن نغتذي من الكتاب المقدس الذي تفسره الكنيسة تفسيرًا روحيًّا صحيحًا، عندئذ نستمد من القائم من بين الأموات القوة والبركة، فنحيا بفرحٍ وسلامٍ وطمأنينة.

ختامًا، أشكر وأبارك الجهد الذي بذله قدس الأيكونومس د. إبراهيم دبور في ترجمة هذا الكُتيّب

إلى اللغة العربية، ليكون معينًا ومرشدًا لأبناء الكنيسة بجانب الكتب الرّوحية الأخرى، خاصةً في هذه الظروف الصعبة التي نحياها. ونحن على ثقةٍ تامةٍ، وإيمانٍ راسخٍ أن أزمنة الضيقات لن تدوم طويلا، بل هي فرصة للعودة إلى الذات وإلى اللّه، لنُدرك محبتِه العظيمةِ لنا، فتُشفى نفوسنَا وأجسادَنا، فنفرح ونُمجد أبانا الذي في السموات.

الداعي لكم بالرّب يسوع المسيح

المطران خريستوفوروس عطاالله

+ المطران خريستوفوروس

مطران الأردن للروم الأرثوذكس

٢٠٢٠

مقدِّمة

إن الهزّات الأرضيّة التي تصيب اليونان من حين إلى آخر تنشئ تساؤلاً طبيعياً حول أسبابها، فالذين يعيشون الأرضيّات من الطبيعي ألّا يقبلوا أي تفسيرات بعيداً عما يحدث في باطن الأرض (أي أنهم يعطونها تفسيراً علميّاً بحتاً بعيداً عن اللّه)، أما المؤمنون الذين يعيشون الثنائية ما بين الإيمان والمعرفة العمليّة فإنهم يعتمدون بالتفسير على خبراتهم الروحية وعلى كثرة قراءاتهم لعلماء الهزّات الأرضيّة، من نظريات ماديَّة أيضاً ومنطقيَّة.

ولكن للكنيسة رأيٌ واضحٌ وتعاليم واضحة موجودة في النصوص الطقسيَّة وفي عظات الآباء القديسين وفي الكتاب المقدس.

يوجد كثير من أعضاء الكنيسة من

إكليريكيين ولاهوتيين لا ينكرون هذه الظواهر الطبيعية، وفي نفس الوقت يعتبرونها تجارب بسماح من اللّه سواءً لهم شخصياً أو لجماعة شعب اللّه، فنراهم يرغبون بإعطاء تفسيرات متباينة معتمدين بجزءٍ منها على الظواهر الطبيعية والجزء الآخر على أنها بتدخّل جزئي من اللّه، ولكن بشكل عام فإن الكثير من المفسّرين لا يعتبرون أن سبب هذه الظواهر هو اقتراف الخطايا.

هذه التفسيرات تسيء لحياة شعبنا الروحيّة، كونهم لا يعترفون بأن الهزّات الأرضيّة هي عبارة عن علامات من اللّه ناتجة عن محبته لنا، ونتيجة لذلك فإن الفكر هذا لا يقود الإنسان للتوجّه نحو الشفاء من الخطايا وبالتالي التوبة.

وبسبب الهزّات الأرضيّة المخيفة الرهيبة

التي حدثت في مدينة تسالونيك أردتُ أن أكتب هذا الكتيِّب كون الكثيرُ من أبنائي الروحيين يطلبون منّي تفسيراً روحياً لهذه الهزّات الأرضيّة وهذه الظواهر، ولكي نردّ على علماء الهزّات الأرضيّة أردت أن أكتب التالي:

"إن هذا الكتاب وبصراحة ووضوح ودون بديهيات علميّة أو لاهوتيّة، يدل على قناعات كاتبه الذي يؤمن بتعاليم وخبرات الكنيسة".

في إطار التعاليم الكنسية الملهَمة من اللّه، فإن هذا الذي ندعوه "الضابط الكل والكلّي الصلاح ذا القوة التي لا تُحد والكليَّة الصلاح" يُعتبر أساس حديثنا هنا.

عملياً، نحن نعتمد بشكل واضح ومنطقي على أن اللّه وكونه الضابط الكل، يتفحّص وبكل دقّة، ليس النجوم والأرض فحسب،

وإنما ملايين الملايين من المجموعات الشمسية الموجودة في الكون، وكونه كلّي الصلاح، ولديه المحبة الكاملة وغير المتغيِّرة التي لا يمكن إدراكها من خلال مقاييسنا المعرفيّة الأرضية، فإنه يحتضن بعشق كبير جميع خلائقه بما فيهم الخليقة الماديّة وغير الماديّة، وبالدرجة الأولى فإنه يوجّه محبّته إلى الإنسان، ويعمل من أجل خلاصه حتى النهاية.

في هذا الكتاب الصغير نؤكّد ونُظهر حبَّ اللّه غير المتناهي، وتدبيره بواسطة قدراته غير المخلوقة، وهكذا، حتى نوجد دائماً تحت مظلَّة حماية الروح القدس. وكما ظهر حقيقة للقديس سيرافيم ساروف الذي تحدث إلى تلميذه موتوفيلوف في كثير من الأحداث تجاه هذه الأفكار.

إذاً، نحن لا نستطيع أن نفسِّر ما حدث من هزّات في تسالونيك دون الرجوع إلى التدبير الإلهي، وإلى قوة اللّه التي لا تحدّ، ومحبته الهائلة، وخصوصاً تجاه الأرثوذكسيين، بالإضافة إلى حبِّه تجاه أبنائه الخطأة.

إن الهزّات الأرضيّة – مع كل نتائجها المؤلمة والمحزنة – ليست إلّا تعبيراً عن محبّة اللّه، ولكنّها بأسلوب تأديبي محزن. فهو بهذا الإجراء يساعدنا وبكل حنان لنصل إلى ما نحتاج إليه ألا وهو الصحوة من خمول الخطيئة والعودة إلى التوبة، ويساعدنا في أن نحوّل ذهننا وأفكارنا وأعمالنا باتجاه اللّه، وكأنه يقول لنا: "اسْتَيْقِظْ أَيُّهَا النَّائِمُ وَقُمْ مِنَ الأَمْوَاتِ فَيُضِيءَ لَكَ الْمَسِيحُ" (رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس ٥: ١٤).

لذلك أعطينا عنواناً لهذا الكتاب ليكون "محبَّة اللّه تهزّ الأرض"، فإن توفرت المحبّة في نفوسنا، حينها سنشعر ونفهم حضور محبّة اللّه، ولكنٍ بسبب عدم وجود هذه المحبّة الكافية فينا، لذا أُعطينا أن نؤمن بتعاليم الكنيسة، لأن جهلنا الأمور الإلهيّة دليل على غياب المحبّة فينا.

جبل آثوس يوم التجلي ١٩٧٨

الراهب ثيوكليتوس

الذي في دير ذيونيسيوس

١- مع ثلاثة نسّاك

أصدقائي وأخوتي في المسيح أهل مدينة تسالونيك الكرام،

لقد دعوتموني أن أكتب لكم أفكاري حول الهزّات الأرضيّة، والتي سبّبت الخوف لأبناء مدينتكم، بهدف نشرها من أجل استنارة الشعب.

من الطبيعي أن إنسانًا مؤمناً وراهباً في الكنيسة الأرثوذكسية وذا علاقة مستمرة سرّياً مع اللّه، ويحيا في ظلّ مشاعر النعمة الروحيّة للتدبير الإلهي، ولا يوجد عنده أدنى شك من أن كل شيء يحدث يكون من خلال قدرة اللّه الدائمة وغير المخلوقة، وتحت العناية الإلهيّة،

ويؤمن بأن كل شيء يحدث يكون بإرادة اللّه ومسرّته أو بسماح منه، لهذا، وللإجابة على تساؤلاتكم، فكَّرت بأن أتَّجه نحو أصدقاء لي من النسّاك الذين أحترمهم بسبب قداستهم وحكمتهم وفهمهم اللاهوتي الداخلي، كي أتحرَّر من مسؤوليتي الشخصيّة في إبداء الرأي، وكي يتم تغطية هذا الموضوع من جميع جوانبه.

قمتُ بالفعل وأخذتُ عكازي المصنوع من خشب الكستناء – كونه مستقيماً –، وانطلقت من كاريس المليئة بأشجار الغابات إلى برّية جبل آثوس، وبعد السير على الأقدام لمدة ساعتين تقريباً، وصلت إلى القلّاية التي يسكن فيها أصدقائي النساك الثلاثة.

وبعد لقائي الأخوي بهؤلاء النسّاك الثلاثة، الذين كان منظرهم ومظهرهم يشهد بأنهم خلائق اللّه المعزّية، وبأنهم متحرّرون من كل الاحتياجات الأرضية، وأنهم أعلى من كل الهموم البشرية. لقد كانوا فرحين وجادّين، جميلين وطاهرين، مقدّسين ومستنيرين، يفيضون بمحبّة إلهيّة تجاه البشر، إنهم لاهوتيون حقيقيون.

فاتحتُهم بالموضوع دون أية مقدمات. في البداية، وكأنّهم على اتفاق مسبق، أرادوا تجنّب الإجابة على استفساراتي هذه، مظهرين ذلك بابتسامة صالحة. وبعد ذلك نظروا إليَّ ورأوا في أعماقي نظرة حزينة. وبما أني أعرف منذ زمن بعيد عذوبة ألسنتهم وحكمتهم، وخاصةً رئيسهم، ولشدّة رغبتي بألّا يستمر صمتهم

– الذي في العادة يحمل في طياته الكثير من التعاليم وخاصةً للمبتدئين – وأردت ان أسمع كلماتهم اللاهوتية، وبما أني لاحظت اهتماماً بي من قِبَلهم في هذا الموضوع، عدتُ وسألتهم سؤالي السابق بتوسّل.

٢- شعبنا المضطرب

وبعد تحديقهم فيَّ مطولاً وبعمق، وبعد إدراك هؤلاء النسّاك لصبري، أجاب الراهب الأكبر سنّاً: "أيها الأخ ثيوكليتوس أتريد أن تكتب إلى أهل تسالونيك عن الهزّات الأرضيّة بصفتها ظاهرة طبيعية!؟ ما علاقة ذلك باللّه؟ وكيف تتوافق مع محبته؟ كون هذه الهزّات الأرضيّة قد انتجت دماراً كبيراً. أم هي نتيجة نواميس باطن الأرض التي لا علاقة للّه بترتيبها؟ كما

لاحظتَ، فإني قد تجنّبتُ الإجابة، مفكراً كيف سيكون موقفك عندما تريد أن تكتب الحقيقة وكم ستعاني من ذلك. إن أردتَ أن تبتعد عن الإحراج معهم فاكتب شيئاً كاذباً، ولكن ماذا ستكون الإفادة؟"

أجبتُ: "أرجوك يا أبتي ما الذي تريد أن تقوله في هذا الموضوع؟ وما الذي سيستدعيني لئلا أكتب الحقيقة؟ وما هي المعاناة التي تتكلم عنها؟"

بدا أكثر انفتاحاً وقال لي: "يا أخي ثيوكليتوس، أتريد أن أجيب على سؤالك مباشرةً؟ أتريد أن تعرف علاقة وأسباب حدوث هذه الهزّات الأرضيّة وعلاقتها بالعناية الإلهيَّة؟ أم تريد أن تقول إن هذه الهزّات الأرضيّة يمكن

أن تحدث خارج العناية الإلهية؟ فإن أسئلتك توحي بهذه الاحتمالات، كون البعض يقول بأنها تحدث نتيجة نواميس وتغيّرات في باطن الأرض".

"اللّه يحميني من هذه الأفكار أيها الأب القديس"، أجبته بذلك لأن الأفكار التي تقول بأنها فقط ناتجة عن نواميس الطبيعة، تعادل الأفكار الإلحادية المعادية لله، وأظن أنه لا يوجد راهب يعتقد بأن تتّفق الهزّات الأرضيّة وموت البشر مع محبّة اللّه، ولكن اللّه من محبته للبشر قد يستخدمها بأساليب متنوّعة لمن يحتاجون التأديب، بحيث تتناسب مع وضع كلٍّ منهم وحالته. "إن أسئلتي ليست ناتجة عن اعتراضاتي، ولكنّها مجرّد أفكار تدور في رؤوس الكثير من المؤمنين، وحتى في أوساط

اللاهوتيين، وهذا ما استدعاني أن ألتمس إجاباتك كي أستعين بها بشكل مناسب”.

الآن قد ارتحتُ أيها الأخ ثيوكليتوس وكذلك أخوتي الرهبان الذين معي. ولكن لديّ تخوّف واحد وهو: كيف ستستطيع أن تكتب لشعب معظمه قد فقد إيمانه باللّه؟ فهذا الشعب سوف يستهجن فكرة أن الهزّات الأرضيّة التي سبّبت الكثير من الدمار والشقاء، هي شكل من أشكال محبَّة اللّه لهذا الشعب، لذلك قلتُ لك بأنك ستضع نفسك في موقف محرج، كونك اتخذت قراراً بأن تقول الحقيقة الصريحة للشعب.

أجبتُ: “بالحقيقة، إن هذا السؤال هو مشكلة بحد ذاته، ولم يسبق لي أن فكَّرتُ به من قبل، ولكن على الإنسان ألّا يقول إلّا الحقيقة، ولكن

كيف يجب أن يقولها؟ إذاً، بماذا تنصحني أيها الشيخ القديس من حيث الأسلوب والطريقة التي نجيب بها؟"

"ماذا تقول لهذا الشعب المضطرب؟ إنه مضطرب ليس من أجل سيرة حياته المزعجة فحسب بل وأكثر من ذلك، إنه مضطرب بسبب إيمانه المجروح، إني أخاف – قال الشيخ – أننا لم نفهم بعد تبدُّل نفوس إخوتنا في المسيح والذي نتج عن تأثّرهم من انحطاط عاداتهم التي يمارسونها خلال العشر سنوات الأخيرة. دائماً وعلى مرّ العصور كان شعب اللّه يتأثر من أساليب الشيطان بدرجات تتفاوت من شخص إلى آخر، ولكن مهما ابتعد شعب اللّه عن اللّه بسبب حروب الشيطان، سواء ابتعاداً لفترة طويلة أو قصيرة إلا أن ذلك لن يحوِّل نفسه عن

اللّه، بل سرعان ما يعود إليه بالتوبة، لأن نفسه ليست مبنيَّة على دعّامات نظريّة أو عمليَّة."

"ماذا تعني أيها الشيخ؟ – مقاطعاً إياه – بالدعامات النظريّة والعمليّة للبعد عن اللّه؟"

"أعني بالدعامات النظرية: أي جميع النظريات والأساليب المختلفة التي تُستخدم لتبرير كافة أشكال الخطيئة جاعلةً إياها وكأنها متطلبات حياتية أو مستحقات عمليّة متحضّرة، أما الدعامات العمليّة: فهي التطبيق العملي، وأنت تعلم إلى أين تقود، إلى تنفيذ وارتكاب جميع الخطايا بضمير خفيف ومرتاح (غير مُؤنّب) وهنا يتم تحوُّل الضمير بسهولة، وبسرعة ليصبح الضمير وحيداً دون أية مساعدة."

٣- المسيحيّون القدامى ونحن

"إن وجهة نظرك أيها الشيخ لحكيمة، فبالرغم من أن المسيحيين القدماء قد اقترفوا الخطايا، إلّا أنهم وبسبب عدم وجود نظريّات شيطانيّة تبرّر أنواع الخطايا من وجهة نظر علميّة أو لاهوتية أو فلسفية آنذاك، لذلك كنتَ تجد لديهم ضميراً يشعر بالذنب لحظة ارتكاب الخطيئة»، وهذا الأمر -كما تعرفون- لا يترك مجالاً للخطيئة أن تتجذَّر في النفس لتحوِّلها عن اللّه، وهكذا وتحت تأنيب الضمير كان الشعب يتوب بسرعة وبسهولة. يمكن القول أن المسيحيين قبل أن يفتحوا عيونهم إلى النور الغربي الكاذب والحضارة الغربية، لم يثبتوا ولا لمرّة فترة طويلة في حياة الخطيئة، ولا بأي دينونة ما، بل كانوا يتوبون في الحال، متخطّين

خلال حياتهم قوى أهوائهم التي لم تدعهم في حالة انتصار دائم، ولكن اليوم....“

”اليوم!“ قال الشيخ الحكيم: ”يوجد لدي معلومات تدعوك للتفاؤل أيها الأخ ثيوكليتوس، أنه ليس فقط أهل تسالونيك لم يفهموا رسائل اللّه، في أغلبيتهم، حتى ولا الشعب المسيحي بأكمله، وأريد أن أقول حتى العالم أجمع، هذا لو استثنينا خدّام الكنيسة أي الكهنة الذين هم أيضاً يخافون أن يتكلموا بشكل واضح، وبعض الآلاف من المؤمنين.

نلاحظ أن أكثر من (٧٠٠،٠٠٠) سبعمائة ألف قاطن في هذه المدينة البيزنطيَّة يمكث في ظلام الخطيئة والجهل. الناس يحاولون تفسير هذه الظواهر مع أنهم أرثوذكسيون، ولكنهم لا

يفسِّرونها بالمعنى الذي ما فوق الطبيعة. أنظر إلى الكهنة فإنهم يقدمون الابتهالات والصلوات إلى اللّه ويخشون أن يقولوا للشعب أن هذا يحدث بسبب قساوة قلوبهم وكفرهم، وأن هذه الهزّات الأرضيّة ما هي إلا أجراس إنذار من اللّه".

"إذاً أيها الشيخ، هل يجب أن نصمت حتى لا نستدعي الشيطان بحيله المتنوعة ليدمّر نفوس شعب اللّه الضال؟" إذا لم يأخذ الكهنة والرهبان المبادرة في إطلاق الحرب ضد الشيطان، عدوّنا الذي يعمل ما بوسعه من أجل أن يقود أولاد اللّه إلى الجحيم، حينها ماذا سنعطي جواباً للرب الديَّان؟ وما هو وضع المحبَّة الموجودة فينا تجاه إخوتنا المتألمين؟".

فقلتُ له: "ماذا تنصحني يا أبتي، أيها الأب الجزيل الاحترام؟".

"لا أعتقد أنه يجب أن نصمت وأن نتقبل الواقع» أجاب الشيخ «وأن نقبل هذه الحالة المأساوية التي أنتجتها الهزّات الأرضيّة في نفوس التعساء من إخوتنا في المسيح. ولكنَّنا بحاجة إلى استنارة إلهيّة ترشدنا إلى الطريقة المناسبة التي نحتضنهم بها ونتقرب إليهم، لأن قلوبهم عطشى لسماع تفاسير هذه الأمور التي تبدأ أساساً من عند اللّه، فإن آلافاً من شعبنا المضطرب قد دمَّروا نفوسهم".

٤- الخطيئة والهزّات الأرضيّة

أكمَل الشيخ الناسك "أتذكّر أيها الأخ ثيوكليتوس حين وجدت كلاماً مماثلاً للقديس يوحنا الذهبي الفم عندما كان كاهناً آنذاك. بعد هزّة أرضيّة مدمّرة في مدينة أنطاكيا، وقد ولّدت هذه الهزة خوفاً عظيماً في نفوس المؤمنين، ولأن المسيحيين في ذلك الوقت كان عندهم إيمان باللّه، فقد عزوا سبب هذه الهزّة إلى خطاياهم، فتابوا وطلبوا الغفران من السيّد المحب البشر.

خلال هذه الفترة التعيسة الحال، نطق الذهبي الفم عظته المعروفة (ما بعد الهزَّة) وقد ندَّت كلماته قلوب المؤمنين وكأنها شتاء رطب على أرضٍ عطشى. بالتأكيد كان هناك أناس يتبعون الإرادات الشيطانية، لكنّهم كانوا قلّة،

فالأغلبية كانت تصلّي السهرانيات في الكنائس وترتّل وتشكر السيد، وفي حالة توبة دائمة. استمرّوا على هذه الحال إلى أن خبّرهم أبوهم القديس يوحنا بأنهم قد طهَّروا مدينتهم بواسطة الرائحة العطرة الصادرة من صلواتهم، وأنهم قد تطهَّروا هم أيضاً من وصمة عار الخطيئة». وأكمل الشيخ القديس قائلاً: "بصراحة، هناك أمرٌ علينا جميعاً معرفته، لقد قلتُ لكم بالأمس أن الفائدة من الهزّات الأرضيّة عظيمة، أنظروا إلى عطف الكلّي القدرة الذي هزّ المدينة وثبّت ذهنَنا في الإيمان، يهزُّ أساساتها ويثبِّت عقولنا نحو الصلاح، يدمّر المدينة ويقوِّي إرادتنا الحرَّة نحو الخير. أفهمتهم حب اللّه للبشر؟ لقد هزَّ المدينة قليلاً ولكنَّه ثبتها إلى الأبد في الإيمان، لقد استمرّت الهزة لمدة يومين ولكن

تقواكم يجب أن تبقى لمدة حياتكم بأكملها. لقد حزنتم لفترة وجيزة ولكنّكم تجذّرتم بالتقوى إلى الأبد".

وكون هذا المعلِّم القديس يعدّد الخبرات التي صارت للإنسان نتيجة الهزَّة فإنه يقول لهم أن التوبة التي أظهرها مسيحيو انطاكيا عظيمة فيقول: "إنكم قد ثبّتم مدينتكم أمام الهزّات الأرضيّة عندما أوقفتم غضب اللّه، ولكنّني أفرح ليس لأن المدينة قد نجت فحسب، وإنما لأجل أنها نجت بسبب صلواتكم وتراتيلكم التي ثبّتت أساسات المدينة. من فوق جاء الغضب ومن الأسفل ارتفعت تضرعاتكم، لقد فُتحت السماء ونزل على الأرض بشكل كبير وثقيل حُكم اللّه، وسيفه كان جاهزاً مسلولاً. كانت المدينة ستدمَّر، لأن الغضب كان بلا هوادة، ولكن

نحن بحاجة فقط إلى توبة بدموع وتنهدات، التي بواسطتها توقفت جميع تهديدات اللّه. كان اللّه قد قرّر الدمار، ولكن أنتم بسبب صلواتكم وتوبتكم جعلتم اللّه يتراجع، لذلك سوف لن يخطئ من يقول لكم أنكم أنقذتم مدينتكم".

بهذا أنهى هذا الأب الكاهن الملهَم من اللّه عظته، ويكمل الشيخ مظهراً لنا أسباب الهزّات الأرضيّة والتي تختلف في عصرنا اليوم، معتبراً أن الأغنياء يتحدّون اللّه، ولكن اليوم مثلاً إذا سألنا شخصاً: "لماذا حدثت الهزَّة في المدينة؟ حتى ولو لم يجب علينا، لكنه في قرارة نفسه يظن بأن ذلك بسبب الخطايا، وبسبب الجشع والظلم، والإجراءات غير القانونية والكبرياء والشهوات، والانحلال، ولكن مَن مِنَ الأغنياء إذا سألتَه عن سبب توقف حدوث هذه

الهزّات الأرضيّة سيجيبك بأنه بسبب التراتيل والصلوات والسهرانيات؟ وممّن قُدِّمت؟ من الفقراء".

فأجبتُه: "نعم، بالحق تكلَّمتَ أيها الأب القديس، يوجد اليوم نوع من الاختلاف عما سبق، فالمحسوبيات والأنظمة الموجودة الآن تختلف عما كانت عليه في عهد القديس الذهبي الفم. اليوم، وبالرغم من وجود الأغنياء والفقراء إلّا أن المفهوم قد اختلف عما كان عليه قديماً، فتجد أن اقتراف الخطايا صار في متناول كلّ من الفقراء والأغنياء. للأسف الكثيرون في عصرنا لديهم المقدرة بأن يفعلوا جميع أنواع الخطايا التي ذكرها القديس ومعلِّم الكنيسة، فطبيعة الحياة الاجتماعية في يومنا الحاضر تختلف عن أيام القديس يوحنا

الذهبي الفم، مما يجعله – لو كان في عصرنا – أن لا يعتبر بأن الخطايا مقتصرة على الأغنياء، وإنما على جميع أفراد المجتمع الذين يشتركون في ممارسات الشيطان وحضارته الشيطانية، وأن التحدّي ضد اللّه صار مفضوحاً وجليّاً للجميع، وكون خيرات اللّه تعمّ الجميع، صار مجتمعنا غير قادر على تصوُّر كيف كانت حياة المجتمعات السابقة".

٥- الأيام الأخيرة

فقلتُ: "إن وقاحة الخطيئة المنتشرة والمستفحلة بين البشر تجعلني أيها الأب ثيوكليتوس أن أفكر في كثير من الأحيان بأننا نوجد الآن في الأزمنة الأخيرة، وتجعلني أتساءل: هل سنعاصِر الدينونة والمجيء الثاني

للمسيح؟ ولكن ما يعيق تفكيري هذا التشاؤمي، هو وجود ظاهرة الخير، أعني بها الرعيّة الصغيرة والجزء الكبير من المختارين ذوي الضمائر الصالحة واليقِظة، الذين يعيشون في عصرنا هذا وضمن هذه الأجواء المعاكسة لكل ما هو روحاني وصالح، كما وأيضاً انتصار الكثير من المؤمنين على الشيطان، ووجود الكنيسة المجاهدة ورهبانياتها والصلوات والأنشطة البنّاءة التي يقومون بها، حتى وإن كانت بدون تنسيق أو بدون إشراف من المسؤولين في كنيستنا".

ويسترسل الشيخ قائلاً: "كل هذه الأمور تُخفِّف من ألمي وتعطيني بصيص أملٍ في العودة إلى جذورنا الأرثوذكسيّة، حتى نجد مرّة أخرى أمّتنا المقدّسة الملوكيّة الكهنوتيّة، وهي

حضارتنا البيزنطيّة، حتى تشفى من الأمراض الغريبة، وتحيا مرّة أخرى في نفوسنا ونفوس شعبنا الحياة في المسيح المتعارف عليها. وأنا أيضاً يا أخي أُحبط، ولأنني ناسكٌ فأحيا بعلاقة مستمرّة في ذهني وقلبي مع الأمور الأبديّة الصالحة التي لا يمكن أن تفسَّر، والتي تنتظر جميع من أحبوا اللّه، أُحبط عندما أرى في ذهني الحالة التراجيدية لشعبنا الذي لم يفهم حالة التعاسة الفظيعة التي يسّببها له الشيطان والخطيئة، وخصوصاً من خلال العادات التي تقود النفوس إلى نوع من أنواع العبوديّة تجاه الأهواء والأحاسيس، والتي تضفي الشرعية – كما قلتُ سابقاً – على الكثير من الخطايا المتنوِّعة، وبالتالي كيف يستطيع الانسان أن يلتجئ إلى التوبة عن أمر لا يعتبره شراً؟ وكيف

يستطيع الإنسان أن يتحرّر من الرباطات المظلمة عندما تغوص نفسه في هذه الخطايا بفرح معتبراً اياها من ضروريات حياته، وهذا ما يستغله الشيطان".

"إني أوافقك تماماً في كل ما قلتُه أيها الشيخ، وبناء على هذا، ماذا تنصحني أن أقول لإخوتنا في مدينة تسالونيك؟ وماذا عليَّ أن أكتب لهم لما فيه منفعتهم؟ كونهم يسمعون إلى علماء الهزّات الأرضيّة، وخصوصاً المتألمين بما أننا نشاركهم آلامهم في هذه التجربة لشعب اللّه".

أيها الأخ ثيوكليتوس، لقد ذكرتُ لك بعض الصعوبات، ولكن إن أراد علماء الهزّات الأرضيّة إعطاء آراء مختلفة ومتضاربة فيما بينهم فإنهم يولِّدون صعوبات إضافية للشعب، فكيف ستتكلَّم أمام مَن تُعتبر هذه الآَراء

صحيحة بالنسبة للبعض وللبعض الآخر لا تناسبهم؟ كيف ستتكلم بلغة واحدة مع المؤمنين ومع الذين يعيشون ضمن هذه الأفكار المادية؟

"نعم أيها الشيخ الصديق، نواجه صعوبة كبيرة في التخاطب مع شعب يؤمن باللّه، علماً بأن جزءاً كبيراً من أعضائه صار لا يؤمن إلا بالماديات والنظريات المادية، وهنا تقع المشكلة، أن شعبنا لم يعد متكاثفاً كلّه في بوتقة المسيحيين القدامى، والأمر المحزن أن شعبنا لا يعيش حياة الأوائل، بل يحيا حياة عقلانية ماديَّة مضادة لحياة الإنجيل، وقد نفخه الشيطان حتى يتقبل حثالة أفكار المجتمع الصادرة من المعلّمين الكذبة، ومُعرِضاً عن تعاليم الكنيسة. كيف سيقتنع هؤلاء بأن الهزّات الأرضيّة ليست مجرّد ظواهر طبيعية للأرض بل هي عمل محبَّة

إلهيّة؟ أما هؤلاء علماء الهزّات الأرضيّة فبالرغم من وجود اختلافات بالرأي فيما بينهم، إلا أنهم يحضّرون الإنسان لهزّات أخرى".

فأجابني الشيخ: "أيّها الأخ المبارك ثيوكليتوس، إن الأكثر نفعاً هو مجابهة جميع هذه الآراء الشفوية والمتضاربة، بأن تكتب لهم حول هذا الموضوع من وجهة نظر آبائية بحتة، وتستخدم كل الأساليب الكنسية من وعظ وتعليم ودفاعيات ولاهوتيات وروحانيات، أي بمعنى آخر "اعمل عمل البشارة"، وعليك أن تصلِّي بحرارة حتى تجد ثمراً لعملك. وبالنهاية عليك أن تثق بمحبِّ البشر، ربّنا الذي هو أيضاً الزارع الذي خرج ليزرع، ولكنه ترك حراثة الأرض لنا، ولا تنسى أن الحَب لم ينبت أينما سقط، ولكن من واجبنا أن نزرع".

من هذا المنطلق بدأ الحكيم الناسك يتكلم معي عن موضوع الهزّات الأرضيّة، وعن علاقتها مع خلق الكون، وعلاقتها مع الشر الذي يحدث في العالم، مشدِّدا على محبَّة اللّه غير المتناهية للبشر. واستمرت تعاليمه هذه لأكثر من ثلاث ساعات، تعاليمَ أرثوذكسية بحتة متطرّقاً فيها إلى لاهوت عالٍ جداً، وأنا بدوري شكرت الشيخ مع الناسكين اللّذين كانا معه وقد التزما الصمت طوال فترة وجودي، من شدّة احترامهما للشيخ، ولحين خروجي من البريّة عائداً إلى مكاني كي أخطّ في هذا الكتاب كل ما قد سمعته من تعاليم هذا الشيخ الحكيم في المسيح، وخبرة ناسك محترم موجّها ذهنه وقلبه منذ نعومة أظفاره نحو اللّه، كالظل الذي يتبع مسار الشمس.

٦- اللّه والعالم

"في أن اللّه موجود هذا أمر نعرفه، ولكن كيف وما هو، هذا بالنسبة لنا غير مُدرك، والأمر الوحيد المُدرك هو عدم قدرتنا على إدراكه. فإن كان جوهر اللّه غير معروف، إلا أن قدراته معروفة لنا."

إن الخليقة كلّها التي في العالم العقلي والمادي تُظهر وتكشف قدرة اللّه الكليّة وحكمته وصلاحه. اللّه لا يفعل الشر، لقد كانت الخليقة غير المادية كلّها صالحة، أي أن الملائكة التي لا تُعدّ ولا تحصى قد خُلقت كمخلوقات نورانية وأرواح صالحة، ولا يوجد فيها شرّ، ولكن بالرغم من أن الملائكة صالحون بالنعمة إلا أن لديهم عطية عظيمة ألا وهي حرّيتهم وسلطتهم الذاتية، أي إمكانية تحوّلهم إلى الشر. جوهريا،

لا وجود للشر، وإنما هو انتفاء للخير. وبما أن للملائكة حريّة في هذا المجال فإنه بإمكانهم أن ينكروا الخير والصلاح. واحد من رؤساء الملائكة المضيء (أيوسفوروس) تكبَّر بسبب المجد الذي كان عنده، وفي الحال تحوَّل من نور إلى ظلمة، وجذب معه مجموعة كبيرة من الملائكة. إنه الشيطان الشرير هو والذين شابهوه. ومنذ ذلك الحين و(أيوسفوروس) أصبح عدواً للصلاح ولإرادة اللّه.

وكون اللّه من جرّاء صلاحه ومحبته التي لا تُحد خلق الملائكة التي لا تحصى، كذلك أيضاً أراد أن يخلق كائناً متغيّراً (أي مادياً وقابلاً للزوال)، فيه عنصر غير مادي وعنصر آخر مادي، خلق الإنسان حتى يجعله شريكاً للطبيعة الإلهية. وكون حياة هذا الإنسان ستكون على

الأرض، لذا خلق الطبيعة المادية قبل أن يخلق الإنسان، وجميع خلائقه المادية وغير المادية خلقها من اللاوجود.

٧- الخليقة الأولى والسقوط

خلق اللّه الأرض والبحار والسموات والمملكة النباتية والحيوانية، ثم خلق الإنسان على صورته ومثاله، أي خلقه عاقلاً، حرّاً، أبدياً بالنعمة. وكما أن له بالطبيعة هذه الصفات، فقد أعطى الإنسان أن يكون على مثاله في الصلاح والقداسة، بحسب النعمة.

في البداية خلق آدم، وبعد ذلك حواء، ووضعهما في مكان جميل جداً وجنّة إلهيّة، في الفردوس. حيث عاشا في سلام دائم وفي فرح وابتهاج وبراءة طفوليّة، وفي علاقة دائمة

نسكيّة مع اللّه، وأعطاهم وصيَّة واحدة: أن يفرحا في جميع مجالات الحياة في الفردوس ويأكلا من جميع ثمار أشجار الجنّة عدا ثمار شجرة المعرفة.

ولكن الشيطان الحاقد على الجدّين الأوّلين تسلّل بثوب أفعى، كونها تُعتبَر الأكثر حكمة بين جميع الحيوانات في الفردوس، وخدعهما من خلال وعد كاذب بأنهما سيصبحان مثل الآلهة، فأكلا من الثمر الممنوع، وما أن أكلا منه حتى خسرت نفساهما النعمة وماتت، وهما أصبحا مائتين (قابلين للزوال) وظهرت عندهما أهواء، وفقدا العلاقة الدائمة مع اللّه كما سبق وحذّرهما في وصيّته. إنها حالة مأساوية، لقد مرض الجدّان الأولان نفسيّاً وروحياًّ، وانحرفا عن مسار "صورة اللّه"، فطُردا من

الفردوس، وأصبحت حياتهما فيما بعد عبارة عن مسيرة حزن ليس لها حد، كون اللّه عاقبهما نتيجة عصيانهما.

ولكن بما أن اللّه لا يتغير وهو محبّة وكليّ الصلاح، لذلك لم يكتف بأنه وعد الساقطين التعساء بالعودة لمكانتهم الأولى بعد مرّ الدهور، ولكنّه اهتم بهم أيضاً وتعامل معهم كأولاد له، محترماً حريّة اختيارهم التي أعطاهم إياها، مع أنهم باستخدامهم الخاطئ لحريتهم وابتعادهم عن محبة اللّه عبروا إلى دائرة سلطة الشيطان وتأثيراته، ولكن اللّه بطريقة لا تُدرك لم يسمح للشيطان بأن يمارس عليهم كلّ حقده، بل وبالموازنة مع هذا العمل أبقى لهم حريّتهم ليفعلوا ما يشاؤون.

٨- العالم القديم

إن حياة الجدّين الأولين، أو بكلمات أخرى حياتهما ضمن موتهما الروحي، أصبحت تحمل في طيّاتها كل معاني التحوُّل من الحالة الطبيعية "على صورة اللّه" إلى حالة ما دون الطبيعي، لذلك رافق تكاثرهم أن تكاثرت معه أيضاً شرور الإنسان، مع بعض الحالات الاستثنائية النادرة، وتوطدت القوى الشيطانية في قلوبهم وقُيِّدت نعمة اللّه، فلم يوجد شر لم يفعلوه لدرجة ارتكاب القتل وعبادة الأصنام، أي وبمعنى آخر صار عندهم جهل كامل وتحوّل كامل.

ولكن عندما عمَّ الشر، فبالرغم من أن البشر مخلوقون "على صورة اللّه ومثاله"، إلا أن قلوبهم تحجّرت وهيمنت عليهم شهوات الجسد

وصارت خطاياهم تزداد، فلم يجد اللّه فيهم سبباً للإبقاء على حياتهم، فقرر من دافع شفقته أن يمحوهم عن وجه الأرض كي تتوقف خطاياهم، وإذ بأمرٍ من اللّه فتحت الأرض بطونها وتدفقت الينابيع والشلالات بقوة وكأنها من الجحيم خرجت، وهطلت الأمطار الغزيرة من السماء، هذه كلّها حصلت بإرادة اللّه. كلّها عملت بتوافق مع بعضها البعض.

وهكذا صار الطوفان أيضاً، لقد أطاعت هذه العناصر الطبيعية خالقها وغرّق الطوفان العالم المعروف قديماً، ولم ينجُ منه في الفُلك سوى البار نوح مع سبعة من أفراد عائلته بالإضافة إلى زوجٍ من جميع أنواع الحيوانات. أنظر إلى هذه الهزَّة المائية التي دمّرت ليس مدينة واحدة أو اثنتين فحسب، بل وكل الجنس البشري

وحتى المملكة الحيوانية أيضاَ. لقد تعطل عمل النواميس الطبيعية التي نظّمتها العناية الإلهية بغير فتور.

٩- العالم المتوسط

وعادت الحياة مرّة أخرى إلى نظامها، واللّه مشرف عليها مباشرة، فهي تحت نعمته. عاد البشر وتكاثروا مرة أخرى وكما هو الحال أيضاً في الخليقة غير العاقلة. ومع تكاثر البشر تكاثرت أيضاً الخطايا وأظهر الشرّ حالة استفزازية من الكبرياء، لقد حاول البشر بناء برج ليصلوا به إلى السماء، ولكن اللّه قدّم وعداً بعد الطوفان بأن لا يدمّر العالم بأجمعه بمثل هذا القبيل من التوسّع، لذلك بلبل ألسنتهم حتى لا يتمكنوا من التفاهم مع بعضهم البعض. وهذه

تعتبر هزة أخرى، إنها هزة للّغات، وقد حصلت بسبب رفع نعمة اللّه عنهم. وفي لحظة واحدة، يقع البرج والمدينة من جرّاء هذه الهزّة، وتنقلب موازين النواميس الطبيعية بإرادة اللّه، وعمل الشيطان يذهب سُدى.

ومثلٌ آخر مخيف حدث نتيجة الخطيئة وهو حرق مدينة عظيمة هي صادوم: لقد كانت خطيئة أهلها عظيمة جداً حتى لم يوجد خمسة أشخاص بين الآلاف من سكانها أبراراً وأنقياءً، والأدهى من ذلك أنه عندما جاء الملاكان واستضافهما لوط، أحاط أهل صادوم البيت كي يفعلوا الشرّ من اللواط بهذين الملاكين، فأرسل اللّه قوّته غير المخلوقة وأعمى عيونهم وأصبح أهل صادوم عمياناً بأعين مفتوحة، وبعد ذلك أخبر الملاكان لوط بأنهما سيدمِّران المدينة وكل ما

حولها، وحاول لوط إبلاغ أفراد عائلته الذين كانوا مهوسين بالزنى بسبب كثرة ممارساتهم لتلك الخطيئة الفاسدة، كما هو الحال اليوم في كثير من شعب مدينة تسالونيك واليونان الذين يعيشون حياة سطحية ظاهرية غير عالمين وضعهم الروحي وبأنهم غير مستحقين لتلك الحياة. لم يفلح لوط الصدِّيق بإقناعهم بأن اللّه سيحرق المدينة بالنار، كما قال الكتاب إنهم ضحكوا عليه بمن فيهم أصهاره. أمطر اللّه من السماء ناراً مع كبريت وأحرق مدينة صادوم وعمورة وضواحيها وكل ساكنيها، وخلَّص اللّه فقط لوط وزوجته وابنتيه الاثنتين مع أن زوجته أصبحت عامود ملح بسبب تعاطفها مع المدينة وعدم إطاعتها للملائكة بأن لا تنظر إلى الوراء لرؤية المدينة المحترقة.

وهنا نرى نوعاً آخر من الهزّات الأرضيّة، دمار مع حريق نار للبشر الذين كانوا أسرى لشهوات الجسد، لذلك لم يكن لحياتهم معنى.

لو أمطرت السماء ناراً وكبريتاً في أيامنا هذه، ومع كل المعرفة العلميّة التي نمتلكها، هل كنا سنعطيها تفسيرات بأنها ظواهر طبيعية ماديّة فقط دون أن ننظر لعمل العناية الإلهية؟ للأسف، نحن للحقائق الروحيّة الإلهية عميان، بالرغم من أن جميع الذين يذهبون في وقتنا الحاضر إلى فلسطين ويزورون المدن الخمس المحترقة، يشاهدون البحر الميت الذي لا يوجد فيه أي عنصر من عناصر الحياة، وهذه آثار ملموسة لبقايا الجحيم التي حدثت نتيجة لخطيئة هؤلاء الذين كانوا أمواتاً بالروح. إنه موضوع محزن».

١٠- الحقبة التي سبقت الإنجيل

في هذه الأثناء من سرد الشيخ، قاطعتُ كلامه وسألتُهُ لماذا يشرح هذه المقدمة ويعود إلى الزمن البعيد، متوقعاً منه أن يقول لي شيئاً عن هزَّات وقتنا الحاضر.

أجاب: "أيها الأب ثيوكليتوس إنني أشرح هذا لسببين، السبب الأول: انه منذ خلق العالم وخلق الإنسان تتكشف في الكتاب المقدس محبة اللّه في الخليقة، والسبب الثاني: ليتعلم المؤمن علاقة اللّه مع خلائقه واهتمامه بها، والعقوبات التأديبية للخطأة، إما عن طريق البشر، أو من خلال عناصر الطبيعة. لقد كانت الفترة الزمنية التي سبقت العهد الجديد تهذيبية، وكان رأسها شريعة موسى والأنبياء. لذلك يقول بولس

الرسول في رسالته إلى أهل غلاطية (٣:٢٤) "إِذًا قَدْ كَانَ النّامُوسُ مُؤَدِّبَنَا إلى الْمَسِيحِ، لِكَيْ نَتَبَرَّرَ بِالإِيمَانِ". لذا عليك أن تشدّد على قدرات اللّه المهذِّبة بشكل مباشر للشعب الإسرائيلي، مستخدماً النصوص النبويّة المتعلقة بعقاب المنحرفين وغير الطائعين، والتي تُعتبر مصادر مهمة جداً لموضوعنا، فهي تركِّز على أن اللّه محبّة، ومن محبّته يستخدم العصا المؤدِّبة والتي استُخدمت في كثير من الأحيان على شكل عقاب، وهذا ما يشدِّد عليه القديس بولس الرسول (عبرانيين ٢:٢-٣) "لأَنَّهُ إِنْ كَانَتِ الْكَلِمَةُ الّتِي تَكَلّمَ بِهَا مَلاَئِكَةٌ قَدْ صَارَتْ ثَابِتَةً، وَكُلُّ تَعَدٍّ وَمَعْصِيَةٍ نَالَ مُجَازَاةً عَادِلَةً، فَكَيْفَ نَنْجُو نَحْنُ إِنْ أَهْمَلْنَا خَلاَصًا هذَا مِقْدَارُهُ؟ قَدِ ابْتَدَأَ الرّبُّ بِالتّكَلُّمِ بِهِ، ثُمَّ تَثَبَّتَ لَنَا مِنَ الَّذِينَ سَمِعُوا".

ويكمل الشيخ حديثه قائلاً: "كما أننا لا نستطيع أن نفهم حاجتنا لتجسد اللّه الكلمة وهدفه وفحوى تعاليمه، وتأسيس كنيسة المسيح إن لم نعرف عن كثب ما كتبه العهد القديم عن سقوط أجدادنا الأوّلين.

إن أردنا أن نتوسع في موضوع محبة اللّه تجاه شعبه الإسرائيلي المحبوب والمختار خلال مراحله المؤلمة والمتنوعة وفي تأديبه له، سيكون هذا الأسلوب غير مفهوم بالنسبة لنا في وقتنا الحاضر، وذلك لأننا في العهد الجديد نحيا حياة النعمة، ولكن الذي كان يحكُم في العهد القديم هو حرفيّة ناموس موسى في عمليّة التأديب، ونحن إذا عُدنا لممارسات العهد القديم فإن اللّه سوف يضطر لاستخدام نفس الأساليب التهذيبية التي استخدمها آنذاك".

بعد كل ما ذكره قال الشيخ الناسك: "تصبح محبة اللّه ظاهرة في خلائقه، حنانه واهتمامه اللّذين يظهران ويعبّران عنه بأسلوب جميل من خلال ألسِنة الأنبياء، مثلاً (سفر إشعياء ٤٩:١٥) "هَلْ تَنْسَى الْمَرْأَةُ رَضِيعَهَا فَلاَ تَرْحَمَ ابْنَ بَطْنِهَا؟ حَتَّى هؤُلاَءِ يَنْسَيْنَ، وَأَنَا لاَ أَنْسَاكِ"، وأيضاً في (سفر تثنية الإشتراع ٣٢:١١) "كَمَا يُحَرِّكُ النَّسْرُ عُشَّهُ وَعَلَى فِرَاخِهِ يَرِفُّ، وَيَبْسُطُ جَنَاحَيْهِ وَيَأْخُذُهَا وَيَحْمِلُهَا عَلَى مَنَاكِبِهِ" هذا ما قاله الرب لشعبه".

١١- قمّة المحبّة الإلهيّة

الآن ذهب ظل الناموس، والنعمة قد حضرت ولسنا بعد تحت الناموس بل تحت النعمة (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ٦:١٤) "بَلْ قَدِّمُوا ذَوَاتِكُمْ للّهِ كَأَحْيَاءٍ مِنَ الأَمْوَاتِ وَأَعْضَاءَكُمْ آلاَتِ بِرّ للّهِ. فَإِنّ الْخَطِيّةَ لَنْ تَسُودَكُمْ، لأَنّكُمْ لَسْتُمْ تَحْتَ النّامُوسِ بَلْ تَحْتَ النِّعْمَةِ".

أولاً وقبل كل شيء عليك أن تتشدّد على ظهور محبة اللّه غير المتناهية، وذلك من خلال تجسد الكلمة الذي هو قمَّة هذه المحبة، وهكذا قد حقّق الإرادة الأولى لله التي تُختَصر في خلاص مخلوقاته، والآن لم يعد الإنسان رهن غضب الطبيعة ولكنّه أصبح موطناً للقداسة ومسكناً لله، وهذا ما نقوله في سحرية عيد البشارة "ذكصا كانين (المجد الآن) في إينوس البشارة"

"اليوم يعلن السر الذي منذ الدهور ويصير ابن اللّه ابن البشر حتى أنه باتخاذه من الأدنى يمنحني من الأفضل إن آدم اشتهى قديما أن يصير إلهاً فخاب ولم يصر، فصار الإله إنساناً لكي يجعل آدم إلهاً فلتفرحنَّ الخليقة ولترقص الطبيعة طرباً ....".

وبالتالي نلخِّص كل سر التجسّد، إن لاهوت التجسد لا يُحَدّ، إنه مليء بمحبَّة اللّه تجاه الإنسان التي لا يمكن أن توصف أو يُنطق بها أو تُدرَك، إن مقياس فهم هذه المحبّة أوضحها الرسل والشهداء وجميع قديسي الكنيسة حسبما استطاعوا، لأن حكمتهم نسبية. لم تستوعب الملائكة كمال سرّ التجسد الإلهي ولا بحر المحبّة الإلهيّة، لذلك فإن الملائكة والناس الأوائل الروحانيين يداهمهم الإعجاب والانذهال من

هذا السر العظيم. فتتحوَّل الملائكة إلى التسبيح المستمر لله، وتهيم حبًّا وعشقاً في النور غير المخلوق، هذا النور الفائض من قدرات اللّه غير المخلوقة، أما الآَخرون أي البشر الروحانيون فيتحركون بامتنان وبتسابيح، وبشكر وتمجيد، وبدموع محبَّة وعبادة.

بهذا القدر هي محبة اللّه الكلّي الصلاح والكلّي القدرة تجاه الانسان الذي هو أغلى ما في الخليقة، والذي أضحى بواسطة تضحية المسيح على الصليب آخذاً نعمة القيامة، وبالنعمة اشترك في جسد ودم المسيح وأصبح هذا الإنسان في مرتبة أعلى وصارت قيمته ثمينة أكثر من الأرضيات والسماويات وأكثر من المنظورات وغير المنظورات.

١٢- المسيح والخلاص ونحن

هل خلُص الإنسان في الحال بمجرَّد تجسّد العناية الإلهيّة؟ لا، ولكن قُدِّمت له إمكانية الخلاص ومقوِّماته. فالفردوس المغلقة قد فُتحت، وصار بإمكان الإنسان العودة إلى اللّه أبيه، وكما تقول الترتيلة "الجحيم قد سُبي وآدم أُعتق واللّعنة أبيدت وحواء أُعتقت والموت قد أميت ونحن قد أحيينا» ولكن الخلاص خاضع لحريّة الإنسان، لذلك يكتب القديس يوحنا الإنجيلي بإلهام «جاء إلى خاصته وخاصته لم تقبله، أما الذين قبلوه أعطاهم سلطاناً أن يدعون أبناء اللّه المؤمنين باسمه" (يوحنا ١:١١-١٢) لذلك، فإن كل من لا يقبل المسيح كمخلّص لا يمكن أن يخلُص، وأيضاً كل الذين يؤمنون به ولكنهم لا يحفظون وصاياه التي من خلالها

تتحرَّر النفس من أهوائها وتصبح معاينة للّه، سوف يدانون كأنهم غير مؤمنين ولا يخلصون.

وهكذا يصبح مفهوم خلاص كل البشر اختيارياً، كي لا يكون خلاصهم بأسر حريتهم أو يكونوا مجبرين على ذلك، لذا وبدون العمل المشترك مع الإنسان لا يمكن أن يتم الخلاص الشخصي. الفرق بين العالم قبل التجسد وبعد التجسد هو أنه في العهد القديم كان الخلاص مستحيلاً ولكنّه الآن أصبح ممكناً.

في العهد القديم كان الإنسان يعيش تحت سلطة الشيطان، وبالتالي لم تكن النعمة فاعلة في نفوس البشر، وكانت الإرادة محجوراً عليها لئلا تميل نحو الصلاح، ولكن الآن النعمة هي التي تسيطر وقوة الشيطان اضمحلّت إلى أدنى

مستوى، والإرادة نحو الصلاح أصبحت أقوى وعاد الإنسان مرة أخرى إلى حالته الأولى (حالة ما قبل السقوط)، وظلّت هذه النعمة في الإنسان المعمّد أرثوذكسياً فقط، ولكن بقي لديه ميل واحد تجاه الخطيئة وكأن هذا الميل هو نتيجة انحراف طبيعي لسقوط الجدّين الأولين.

هنا يجب أن نلاحظ أن خلاص العالم بقيامة السيد المسيح قد تحقّق في كل المعمورة « الفرح قد جاء إلى كل العالم وقد استنرنا بالقيامة»، ولكن في الإنسان يبقى الميل نحو الخطيئة موجوداً كنتيجة لسقوط الإنسان، ولذلك فإن «الطبيعة كلّها تئنُّ وتتمخّض» للآن، كون هذه الطبيعة بحسب الآباء القديسين قد اشتركت بنتائج سقوط مَلِكها "الإنسان".

والآن، الطبيعة تنتظر أن تتحرر من الفناء بعودة أولاد اللّه إلى حريّة مجدهم (رومية ٨: ١٩- ٢١) "لأَنَّ انْتِظَارَ الْخَلِيقَةِ يَتَوَقَّعُ اسْتِعْلاَنَ أَبْنَاءِ اللّه. إِذْ أُخْضِعَتِ الْخَلِيقَةُ لِلْبُطْلِ لَيْسَ طَوْعًا، بَلْ مِنْ أَجْلِ الَّذِي أَخْضَعَهَا عَلَى الرَّجَاءِ. لأَنَّ الْخَلِيقَةَ نَفْسَهَا أَيْضًا سَتُعْتَقُ مِنْ عُبُودِيَّةِ الْفَسَادِ إِلى حُرِّيَّةِ مَجْدِ أَوْلاَدِ اللّه".

١٣- استيضاحات هامّة

عندما شرح لي الشيخ الحكيم موضوع التجسّد ونتائجه، سألتُه أن يفسّر لي لماذا وضع عناصر لاهوتية في موضوع الهزّات الأرضيّة، والتي تظهر كأن لا علاقة لها بالهزّات الأرضيّة ومن الممكن أن تُجهِد القارئ؟ فأجابني التالي:

"تظن أيها الأخ ثيوكليتوس أنّني تحدّثتُ في

مواضيع ليس لها علاقة بموضوعنا المحدّد؟ نعم، كان من الممكن إعطاء جوابٍ مختصرٍ. إنكم تقولون أنه ليس للهزّات علاقة بالعناية والمحبَّة الإلهية، وأما نحن فنجيب: بالرغم من عدم وجود علاقة مباشرة جداً وملحوظة بينهما، إلا أننا إن تجاهلناها سوف لا نُبدي محبّة تجاه الضّالين، لأنهم يحتاجون إلى أسس لاهوتيّة، وإلى وجهة نظر كنائسية صحيحة وحقيقية، وإلّا سيُظَن أنك ستتوجه في كتابك إلى مفهومٍ مكوَّن من فسيفساء (تنوّع) من البشر، ولكن عليك ان تعرف أن المؤمنين واللاهوتيين الذين يتأثرون بأصحاب الفكر المادي وعلماء الهزّات الأرضيّة، سيظنّون بأنه من المستحيل أن يكون لله أية علاقة أو سبب سواء مباشر أو غير مباشر بالهزّات الأرضيّة أو بأية ظاهرة تدميريّة

طبيعية أخرى، بينما هذه تسمى – وأعتقد أنه صحيح – غضب اللّه وكرباج تأديبي".

"أيها الأخ ثيوكليتوس إن لم نشرح الأمور اللاهوتية التي تُظهر اللّه وقدراته وعلاقته مع البشر، وكيف تمثَّلت هذه العلاقة في العهد الجديد بعلاقته مع العهد القديم، مع التوضيح والتشديد على أننا قد اشتُرينا بدم المسيح (١ كور ٦ :٢٠). "لأَنَّكُمْ قَدِ اشْتُرِيتُمْ بِثَمَنٍ. فَمَجِّدُوا اللّهَ فِي أَجْسَادِكُمْ وَفِي أَرْوَاحِكُمُ الَّتِي هِيَ للّهِ"، وأننا لم نعد بعد ننتمي إلى أنفسنا (١ كور ٦ :١٩) "أَمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ جَسَدَكُمْ هُوَ هَيْكَلٌ لِلرُّوحِ الْقُدُسِ الَّذِي فِيكُمُ، الَّذِي لَكُمْ مِنَ اللّهِ، وَأَنَّكُمْ لَسْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ؟" سوف لن نفكر بطريقة أرثوذكسية لأية مشكلة لها علاقة مع اللّه والإنسان".

قال الشيخ يجب علينا أن نضع في ضمائرنا أن ذبيحة المسيح على الصليب، وقيامته المجيدة، والنعمة التي نأخذها بالمعموديّة وباشتراكنا بجسد المسيح ودمه قيَّدت حريتنا في عمل ما نشاء من الخطايا، واضمحلَّت هذه الحريَّة لتصل إلى أدنى حد، هذا كي لا أقول أن محبّة المسيح قد اقتنتها.

١٤- حوار مع المسيح

فسألته: "هل نستنتج أن الإنسان المسيحي هو شخصيَّة غير حرّة؟"

فأجابني: "هو حرّ أيها الأخ ثيوكليتوس، ولكن حريَّته تكمُن بأن يُستَعبد لإرادة المسيح، وكونه قد أُشتُري بدم إلهي فكيف يستطيع أن يفعل ما يريد؟ الحريَّة ليست بأن يفعل الإنسان

ما يريد، ولكن بأن تكون لديه الإمكانية بأن يُخضع هذه الحريّة تحت قدميِّ المسيح اللّتين سُمّرتا من أجلنا، وبعبارة أخرى، كون المسيح قد فدى الإنسان من الوحش المسيطِر عليه، فإنه بهذه الطريقة غير المدركة وكأنه يقول له: "إني قد اشتريتك بدمي، الآن أنت كلّك تخصّني، بالرغم من أن ليس لي حاجة أن أستَعبدُك لأني لست بمحتاج، ولكن حياتك وكرامتك وأبديتك كلّها تجدها في عبوديتك لي، ولكن عندما تصل نفسك إلى الوضع الطبيعي، سوف لا يكون لديها شعور بالعبودية وإنما شعور بالحريّة، وسترغب بشِدَّة في هذه العبوديّة، لأنها بعبوديتها للّه ستجد حرِّيتها وفرحَها وفداءها وسعادتها. لقد خلقتك على صورتي ومثالي من أجل أن تكون مخلوقاً مكرّماً جداً.

أنت مُلك لي شخصيّاً، ولكنك أيضاً ستسألني: لماذا خلقتني هل سألتني إن كنتُ أريد الوجود؟ وكونك خلقتني لماذا لم تتركني أعمل ما أشاء؟ هل ستجيبني بأنك اشتريتني كعبد؟ ولكنَّك لم تعطني الحق في أن أحيا كما أريد، لماذا لا تجعلني أفعل ما يفرحني؟

فأجيبك (أي المسيح): إن هذه الأسئلة يا بُنيّ تُظهر بأن نفسك مريضة، فلو كانت نفسك سليمة لكان لها تفكير معاكس، لأن صحّة النفس واستنارتها تتم من قِبَل الروح القدس، حينها سيولد في النفس الفرح والابتهاج والامتنان والتمجيد وتحوُّلٌ مستمرٌ لعبادة خالقها، فتغوص هذه النفس في هدى روحيّ لا يوصف نابع من قدراتي الإلهية، عندئذ ستطير كالعاشقة حول شخصي مثل الفراشة التي

تحوم حول الضوء.

لو كان ذهنك يا بني يستمد نوره من الروح القدس لما سألتني لماذا خلقتك، أو لماذا لم أسألك إن كنت تريد أن توجد أم لا! لكُنت ستفهم ذلك بالنعمة، وستحبُّني حبّاً ملتهباً يقودك إلى التضحية بنفسك كل يومٍ بفرحٍ من أجلي، ولكنت ستشعر بسعادة لا توصَف كل يوم بسبب اتحادك بي، "أنا فيك وأنت فيَّ"، ولكن كلامك معي بهذا الفكر وبطريقة التذمُّر هذه، يدل على ميولك للخروج من حالة النعمة التي خلقتك عليها، كما ويدل أيضاً على أنني أتركك تعمل حرّاً لدرجة معيّنة ضمن إطار أحدِّده لك وفي مكان محدود أضعك فيه، لئلا تضيِّع نفسك بسبب اندفاعك بتهوّرٍ إلى ما يفرحك مؤقتاً بينما يُخفي في طياته موتك الأبدي".

١٥- الثمن في أن أكون

”ألا يشكِّل هذا الكلام أيها الشيخ تناقضاً؟ هذا يعني حريّة داخل إطار المحدودية.“

”لا تنسَ يا أخي ثيوكليتوس أن موضوع الحرّية الأخلاقية وعلاقتها مع النعمة هي من الأمور المعقَّدة ولكن سأحاول أن أكون أكثر وضوحاً بقدر المستطاع“.

إن الحوار بين المسيح والإنسان يعرض حالة توضيحية للإنسان المخلوق من قِبل اللّه، الذي وبسبب تذمّره المستمر يدخل في حالة مأساوية ويصبح عنده شعور بعدم الراحة، متسائلاً: لماذا خلقه؟ لماذا لم يتركه حرّاً يعمل ما يشاء؟ ولكن هذا الإنسان المحطّم لا يمثِّل كل الجنس البشري، فعلى مرّ العصور هناك

ملايين من البشر لا يتساءلون مثل هذه الأسئلة ولا يتذمرون لوجودهم، بل على العكس، يبدون امتنانهم للّه على وجودهم. ولو بُحث الموضوع من جانب آخر نجد أنه من العدل أن يُحرم ملايين من العالم المخلوق حتى نهاية العصور من السعادة الأبدية، لأن هؤلاء يكونون هم سبب تعاستهم وسبب خسارة الملايين لأرواحهم. إنهم يعتقدون أن التراجيديّة من عدم الوجود تكون أقل وطأةً من الوجود بحالة جهاد مستمر؟ ولكن لو كان بإمكاننا أن نسأل النفوس المتألمة: «هل ترغبون في الفناء والعودة إلى الصفر إلى لحظة ولادتكم، أم ترغبون بالبقاء هكذا على قيد الحياة؟ فبماذا سيجيب هؤلاء؟

أجبتُه: "أعتقد بأنهم سيدخلون في حالة ذهول أمام معضلة، ولن يجيبوا على هذه

الأسئلة الصعبة، وأعتقد أنا أيضاً أن الوجود مع كل التحدِّيات والظروف الحياتية المؤلمة أفضل من عدم الوجود، حتى وإن كان في حالة جحيمية".

"نحن على أتفاق – أجاب الشيخ – أترك الآن موضوع الجحيم الذي سيؤول إليه غير المؤمن في آخرته، وهي تُعتبر نتيجة سلوك الإنسان المستمر في الطريق الخاطئ والانحراف عن اللّه، دون أن يتهذب فيكون مسؤولاً عن هذا الطريق. والآن سأتطرّق إلى مشكلة التهذيب التي تنشئ المشكلة الجدِّية لحريَّة الإنسان.

أرجوك أيها الأب ثيوكليتوس أن تركّز في اهتمامك، وأن تتتبع تفكيري، والذي باعتقادي أنه يفسّر تعاليم الكنيسة. إن كان اللّه هو خالق

الإنسان، وإن كان قد أخرجه من العدم بأمره الذي به خلقه إلى الوجود حتى يجعله شريكاً في مجده الأبدي بصفته المخلوق الأكمل لإدراك حكمة اللّه ولصلاحه، فهو خليقته النابعة من حبِّه الإلهي، وما يدل على ذلك ويؤكده لنا هو ذبيحته على الصليب، ألم نصبح بهذا ملزَمين تلقائياً بقبول متابعة اللّه للإنسان – وبكل حنان أبوي – منذ لحظة ولادته وحتى موته بالجسد؟ وكي أختصر، إنه يعرفنا قبل الدهور.

هذا هو تعليم الكنيسة لأنه يوجد لكلٍّ منّا ملاك حارس منذ لحظة المعمودية التي نتعمّد فيها على اسم الثالوث الأقدس لنموت ونحيا مع المسيح المحيي في جرن المعموديّة".

١٦- السماح التهذيبي

استمر شيخنا بالسرد: "تُعلَن محبّة اللّه وحنانه لنا بطرقٍ مختلفة بحسب الأشخاص والظروف، فيتصرف اللّه بطريقة ما مع البار وبطريقة أخرى مع الخاطئ.

بالطبع إنّه موضوع كبير جداً البحث في التساؤلات هذه: كيف تشكّلت الميول في النفس؟ التحديد المسبق؟ الاختلافات وكيفية التمييز بين الخير والشر؟ ودرجة انجذاب النفس لأشكال الخطيئة المتعدِّدة ولأشكال الفضائل؟ ويبدو أن مَن يحملون نيّة الصلاح في داخلهم ولديهم توجّه في حياتهم نحو استنارة ضمائرهم، يهذِّبهم اللّه بطريقة ما، لتزداد عندهم الفضائل كالتواضع والمحبة ... الخ، حتى يصبحوا أكثر قابلية لتقبُّل مواهب الروح القدس. أما الذين

لديهم ميول للانحراف تجاه الخطايا المتنوعة، فإن اللّه يتعامل معهم كالطبيب الذي يستخدم الأدوية المؤلِمة، في الوقت الذي يتعامل فيه مع من لديهم توجُّهات للفضائل بالأسلوب المناسب الذي يمكِّنهم من مضاعفة فضائلهم، وطبعاً دون التأثير على ارادتهم، بعكس أولئك الذين عندهم جنوح للشّر فإن اللّه يسمح بمرورهم في تجارب متنوّعة وبأوجاع معيّنة مما يحقق العدالة الإلهيّة، وهذا يؤثر على حريتهم فيبدو لهم وكأنه إكراه، وهنا تُسلب حرِّيتهم بالكامل".

عندها قلتُ للشيخ: "إن الحفاظ على الحريَّة مرتبط مع التجارب غير المرئية التي يسمح بها اللّه من أجل خليقته، فهذه القيود تعني سماح اللّه لهذه التجارب بالحدوث".

"نعم – أجاب الشيخ – تصوّر أيها الأب ثيوكليتوس أن اللّه مليء بالمحبة ويتابع ابنه في كل تفاصيل حياته ويوجّهه للصلاح ويبعده عن كل شر فلا حاجة له للشعور بالرغبة في الحريّة، وهو دائم الاحتضان لابنه، ويعطيه دائماً الطعام الروحي ويُظهر له الطريق الصحيح ويستمر في تذكيره بأنه هو ابن اللّه وأن عليه التوجّه إليه دائماً لأنه ينتمي له، ولأنه هو القريب له وحده، وخارجه لا يوجد غير الفناء والشهوة والظلمة والفوضى والموت الأبدي.

لكن لو ظلَّ اللّه يغدق بدلاله على الإنسان بهذه الطريقة دون أن يهذّبه بين الحين والآخر، لانحرف ابنه وعوض عن أن يتجه نحو أبيه السماوي سينجذب لإغواءات الشيطان والأهواء الشريرة. لذلك، فإن اللّه بمحبته

للإنسان – وكلٌّ بحسب حالته – يسمح أن يحدث حتى للصالحين تجارب مؤلمة، وهذا السماح من اللّه يسمّيه الآباء القديسون بِ (التراجع أو الانسحاب). يشكِّل السماح من الرب دواء، وهذا الدواء يكون نسبياً من حيث المضمون ومقدار الألم ومن حيث نوع المرض وشدَّته. ومن هذا الدواء (محبة اللّه) ينشأ أو يتشكل التأديب الذي يعمل نسبياً في الخطأة من أجل تحويلهم عن فعل الخطايا المتنوعة، وأحياناً نجد أن بعض الخطأة يقاومون هذا التأديب أو لا يتعلمون منه، حينها يستخدم الرب أدوية أكثر شدّة وبالتالي إما أن يعودوا إلى اللّه أو أن يتركوا ذواتهم تحت رحمة الشياطين، أما درجة حدّة التجارب وشدّتها فهذا بيد اللّه، فهو الذي يحدّدها.

١٧- الشياطين وقوّتهم

في هذا الشأن سألتُ الشيخ ما هو دور الشياطين؟ وكيف يعمَلون ضد المسيحيين؟ هل يعملون وحدهم وباستقلالية؟ أم بإذنٍ من اللّه ضمن مستوى واحد معيَّن لأعمالهم الشريرة؟ لماذا ذهب فكري وبدون إرادة منّي إلى أحد الهراطقة القدامى الذي علّم أن اللّه هو سبب الشر في العالم؟

"أيها الأخ ثيوكليتوس - أجاب الشيخ الناسك - إنكم تعرفون جيداً من تعاليم الكنيسة أن قوّة الشيطان قد ضعفت كثيرًا عند ذبيحة المسيح على الصليب وقيامته. وأنه أصبح ألعوبة المسيحيين كما قلتُ لك. بالطبع إن الشيطان ثابتٌ في الشر دون تغيُّرٍ، لكنه قد خسر سلطته على الإنسان المسيحي، مع

بقاء حقده وأساليبه الشريرة ضد المسيحيين دون تغيير، لقد أبطِل السلطان الذي يملكه وهو الموت، ولكن مصارعتنا الآن ضد سلطات ورؤساء هذا العالم. إن ضعفه يعتمد على قوَّة المسيحي، وقوته تحدَّد من قبل ضعفنا. يظل الشيطان ضعيفاً طالما نحن موجودين تحت ظِل النعمة واستمرارية الحفاظ على دوام وجودها داخلنا بالذِكر الدائم للّه، وبالتواضع والمحبّة والصلاة غير المنقطعة وبالسيرة النقيّة، ولكن عندما نبتعد عن المسيح بالإهمال والتقاعس وبالأفكار الشرّيرة وبالأهواء وبالخطايا، حينها ندخل في دائرة الشيطان فيبدو لنا الشيطان وكأنه قويّ ويظهر بأنه شديد على عكس ما هي الحقيقة، ولكن ما دمنا موجودين تحت تأثيره فإننا بهذا القدر نُظلم ونتّسخ ونغرق ونصبح

في حالة نزاع الموت، كالذي كان نازلاً من أورشليم إلى أريحا، ولكن إلهنا المحب البشر لم يترك أعداءه يقتلوه ولا أن يشوّهوا خليقته دون وجود رجاء للشفاء.

إن عمل الشياطين هو محاربة جميع البشر، وخصوصاً أولئك الذين لديهم مقوّمات الخلاص أي الذين عندهم ختم اللّه الحي، المعمَّدين الذين هم أعضاء الكنيسة.

يوجد نظريَّة غير أرثوذكسية تقول بأن اللّه ليس كلّي القدرة مبرِّرين ذلك ببقاء وجود الشياطين الذين بالرغم من أنهم لم يستطيعوا أن يُبطلوا عمل اللّه إلا أنهم يدفعوننا وبدون شك إلى الفناء.

وأما الشيخ فقد شدّد بالرّد على هذا الفكر

قائلاً: "إن هؤلاء في قمّة الجهل، للأسباب البسيطة التالية: لو أن اللّه يريد أن يدين الشيطان ويحكم عليه وجميع قواته بالفناء سيحقق ذلك في أقل من ثانية، وهذا ما حدث في لحظة سقوطهم كالشّهب من السماء. إن عدم فناء الشيطان هو أحد أسرار الحكمة الإلهية، هذا السر الذي لا يمكن لنا أن نفهمه نحن الذين نحيا بالجسد. يقول بعض الآباء اللاهوتيين لقد أبقى اللّه الشيطان احتراماً لحريته، وأما من جهة التعاليم الأرثوذكسية فهي تعتبر أن الشيطان يعمل وكأنه خادم للّه، مع أن المسيح قد دمّر قدرته إلاّ أنه تركه يعمل كعنصر سلبي في حقل التدبير الإلهي من أجل خلاص البشر. إن هذا العنصر هو نوع خادم شرير، مع أنه غير مرتَّب في خدمة اللّه، إلّا أنه ودون إرادته

يخدم اللّه. كل هذا سمح به الرب حتى يصبّ في خلاص المؤمنين. كنتيجة للسقوط ازداد الميل نحو الخطيئة فترك اللّه الشيطان، الذي كان سابقاً لديه قوة عظمى، مترهّلاً بلا قوة، مجرّد عبد يرهب ويرتجف من القديسين والملائكة، تركه كي يكمل بالرغم عن إرادته قداسة البشر حتى بانتصارهم عليه يصيرون كالملائكة.

ويتم ذلك حينما يهجم على المسيحيين بشرٍّ ضمن حربٍ قوّتها تكون بمقدار محدود من قبل اللّه الذي بسبب برّه وحبّه لنا لا يسمح بأن نحارَب بأكثر من طاقتنا من أجل خلاص نفوسنا.

١٨- المصادر والعوامل المساعدة على التجارب.

لقد تكلّمتَ أيها الشيخ عن تهذيب اللّه وعن الأدوية التي يستخدمها من أجل شفاء المرضى الذين هم أولاده، لو سمحت أن تشرح لي حتى أستطيع أن أفهم تعاليم كنيستنا أكثر في هذا الموضوع.

"إن هذه المواضيع موجودة في أدب الآباء القديسين بشكل غني جداً وهي مستندة إلى الكتاب المقدس، وإلى خبرة الكنيسة بالروح القدس. بخصوص الفردوس الروحيّ فإن كل المواضيع التي قلتُها لك لم أتوسَّع فيها كثيراً بل قلتُها بشكل موجز وبخطوط عريضة، فذكرتُ فقط المعطيات التي يقدِّمها اللّه بتراجعه أو بسماحه التأديبي.

هذه التي تعمل إما مع الشيطان أو من خلال الطبيعة الساقطة التي تنتقم لإخلالها نظامها البيئي، أو من خلال أوبئة وأمراض جسدية أو من خلال تجارب متنوعة أو من خلال الظلم.

مع هذا كلّه أيها الأخ ثيوكليتوس لقد نصحتك أن تقرأ الكتاب المقدّس بعهديه القديم والجديد كي تستنير لحل هذه المشاكل الحاضرة، وأيضاً من خلال قراءتك لكتب الآباء والشيوخ تستطيع أن تفهم هذه المواضيع كلّها. وهكذا تستطيع أن تتكلم بتناغم مع الكتاب المقدس وكتابات الآباء القديسين التعليمية.

افتح قاموس الكتاب المقدس العهد القديم والجديد على كلمات: التهذيب، التربية، تجارب الشيطان، الغضب، الحزن، وستجد فقرات

منيرة، حتى تمجِّد اللّه الذي يسمح أن يحدث لنا مالا نرغبه ويؤلمنا، ولكن في جوهر هذه الأمور يوجد نعمة الشفاء التي تخدم خلاصنا، وأيضاً عليك أن تجد مواضيع لنفس هذه الكلمات في الفيلوكاليا (كتاب الشيوخ)، حيث يتكلم الآباء القديسون عن هذه المواضيع بالتفصيل.

أيها الأخ ثيوكليتوس حتى تفهم هذا الموضوع من جميع نواحيه، اقرأ أيضاً الأنبياء، وعِظات القديس باسيليوس الكبير والذهبي الفم حيث كَتَبَ أن "اللّه ليس هو مصدر الشر"، وعِظات حول الهزّات الأرضيّة والمجاعات والقحط، وهؤلاء يتكلّمون عن الناموس الروحي وأسباب الهزّات الأرضيّة، وتكلّم أيضاً القديس مرقس المتوحد في البريّة والأب اسحق، أو كتاب الأفخولوجي الكبير.

وكتاب القوانين الطقسيّة حول الهزّة التي حدثت في ٢٦/١٠ وإن لم تتعب، فاقرأ الفصل حول المحبّة من (٢١-٤٦) من الكتاب الثاني، وحول اللاهوت من الأبواب (٨٢-٩١) من المقالة المئوية الثالثة للقديس ماكسيموس المعترف، حتى تنذهل أمام وحدة الرأي بالروح القدس عند الآباء المتألّهين. وبإشارة من الشيخ أحضر الناسك الأصغر حوالي ثلاثة أو أربعة كتب من النسخ القديمة، وبصوت خافت ومتواضع بدأ شيخنا يقرأ ويفسّر، وأنا أترجم لأوجز وأبسّط هذه النصوص.

١٩- عندما ترى مدينة مدمّرة

"أنظر ماذا يقول القديس باسيليوس الكبير - أيها الأخ ثيوكليتوس - (إن اللّه ليس مسبِّباً للشرور)، فليس كل ما نعتبره شرّاً هو كذلك بل أن الشر الوحيد في العالم هو الخطيئة، وأما من جهة ما قد نعانيه من أمراض وآلام وجروحات جسدية، أو من فقر وعيش متواضع، أو من خسارة مالية، أو من وفاة أقارب، هذه كلُّها قد يسمح بها اللّه من أجل فائدة نفوسنا، هذا السيد الصالح العظيم.

أحياناً يدبِّر اللّه بأن يخسر الغني ماله الذي كان يستخدمه للشر حتى بهذه الخسارة يوقف استمرارية هذا النوع من الشر، وأحياناً أخرى يسمح اللّه للبعض بالمرض مفضّلاً أن يُلبِسهم الأمراض على أجسادهم من أن يكونوا ذوي

أجسادٍ صحيّحة وحرّة فتفعل الخطيئة، أحياناً أخرى يأخذهم اللّه بالموت مفضّلاً به عن حياتهم الكسولة، أو مُوقِفاً به خطاياهم الواسعة، وقد يسمح بالجوع أو القحط أو الفيضانات في الشتاء وما هي كلّها إلا جلَدات عامة لمدن أو لشعب كامل...“

يقول القديس باسيليوس الكبير - يُكمِل الشيخ مقارناً اللّه بالطبيب -: ”الإثنان يعملان بكل جهد وجدّ من أجل المرضى، في حين أن الطبيب الذي يشفي الأجساد يسمّى مُحسِناً وأنت بالطّبع تدفع له النقود، على عكس ذلك تفعل عندما يسمح اللّه بتدمير مدينة بكاملها على رؤوس سكانها بهزّة أو بغرق سفينة بمن فيها من ركّاب، حينها تسارع وتكفر باللّه الطبيب والمخلّص...، لماذا عندما يصبح المرض عضالاً

يفضَّل حينها أن يُقطع ذلك العضو المصاب كي لا يمتد هذا المرض العضال لباقي أعضاء الجسم؟ هذا ما يحدث عندما يسمح اللّه بفناء إحدى المدن التي ارتكبت كل أنواع الخطايا...“

ويُكمِل الشيخ قائلاً: ”يشدِّد القديس باسيليوس على أن كل آلام الحروب تأتي بالتوافق مع عقوبة اللّه العادلة، لكي يعاقَب الخطأة الذين لا يتوبون“.

ويسأل الشيخ: ”هل تريد ألّا يحترق أهل صادوم وعمورة بعد كل الذي فعلوه أمام عيني الرب؟ أو هل تريد ألّا تدمَّر أورشليم وهيكلها بعد كل ما اقترفه اليهود ضد السيد المسيح...؟“

أرأيتَ أيها الأخ ثيوكليتوس أن الآلام الشخصيّة والعموميّة والمصائب العامة لا

تحدث باستقلالية عن إرادة اللّه – يقول الشيخ – ولكن كل شيء يُدار من قبل حُكمِه العادل. من المؤكّد أن الأمر السيء الوحيد في هذا العالم والذي لا يُقبل إنما هو الخطيئة، أما باقي الأمور المحزنة ما هي إلّا أدوية لزوال الخطيئة، وبالتالي فإن الشخص الذي ينوح على فقدانه للخيرات الأرضية هو شخص غير مبالٍ لخلاص نفسه. يقول جميع الآَباء القديسين وأيضاً الجندي السماوي باسيليوس الكبير الذي يثنِّي ويقول: "إن أمراض المدن والشعوب، القحط وعدم وجود خصب ثمار الأرض وأيضاً الأوجاع الشخصية كلّها تقطع تكاثر الشرّ، هذه الأمور التي عملياً لا تُعتبر شرّاً، إنها في الواقع تُقام من قِبَل اللّه حتى تَخلع قوى الشرّ الحقيقية، أي الخطايا، وبالتالي فإن اللّه

يحطّم الشرّ الذي هو الخطيئة، ولكن الشرور الأخرى والحقيقية ليس مصدرها اللّه. كما أن الطبيب لا يصنع المرض وإنما يزيله من جسم الإنسان، كذلك أيضاً فإن دمار المدن من خلال الهزّات الأرضيّة والفيضانات ودمار الحروب والخراب وجميع المصائب البشرية التي تعمل على الأرض والبحار ومن الهواء والنار أو من أي سبب آخر، يصيرون جميعاً سبباً لتهذيب الأحياء وهذا التهذيب يقطع وباء الخطيئة.

٢٠- إن لم تتوبوا تهلكوا

عن هذا الموضوع سألتُ الشيخ كي يقولَ لي رأيه: "لماذا تراجع اللّه وسمح أن يحدث هذا الضرر لمدينة تسالونيك وليس لمدينة أخرى في العالم الأرثوذكسي اليوناني؟"

"أيها الأخ الحبيب ثيوكليتوس، إنه ليس مسموحاً لنا أن نبحث المصائب المرسَلة بسماح من اللّه ولكن علينا أن نمجّد اللّه على كل شيء بما فيه تدخلاته التهذيبيّة الصادرة من محبته لنا. يكفي أن نعرف أن اللّه يُحبّنا محبّة غير محدودة كأب حنون ويستخدم في الوقت المناسب الأسلوب التهذيبي المناسب وذلك لخير جميع أبنائه، لأن اللّه محبّة وكل ما يفعله حتى وإن كان طعمه مرّاً إلا أنّه لصالحنا".

سألتُه: "فلماذا اختار اللّه مدينة تسالونيك لعمليته الجراحية؟" أجابني: «للإجابة هنا، أريد أن استخدم كلمات الرب لليهود: "أَوْ أُولئِكَ الثَّمَانِيَةَ عَشَرَ الَّذِينَ سَقَطَ عَلَيْهِمُ الْبُرْجُ فِي سِلْوَامَ وَقَتَلَهُمْ، أَتَظُنُّونَ أَنَّ هؤُلاَءِ كَانُوا مُذْنِبِينَ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ السَّاكِنِينَ فِي أُورُشَلِيمَ؟

كَلاَّ! أَقُولُ لَكُمْ: بَلْ إِنْ لَمْ تَتُوبُوا فَجَمِيعُكُمْ كَذلِكَ تَهْلِكُونَ" (لوقا ١٣: ٤-٥). عندما يسمح اللّه ببعض الأمور المحزنة التأديبية لمدينة ما دون الأخرى، بالرغم من أن كلاهما خاطئتان، يجيب الرّب بنفسه على هذا الاستفسار، بأن هذه المدينة تُهذَّب للتوبة كي تصير عبرة للمدن الأخرى التي تخطئ بنفس خطاياها".

ويستمر شيخُنا في السرد قائلاً: "إن تفسير حدوث الهزّة في تسالونيك والبحيرة التي في فولوس كانت ضروريّة لغير المؤمنين القاطنين فيها والمؤمنين الوسط، إن هذا التفسير مُرض أي أن الخليقة تُهزّ بسبب خطايا البشر، أي أن اللّه الذي يهذِّب في الوقت المناسب وبطرق مناسبة، هل عليه أن ينتظر من الطبيعة غير العاقلة أن تتذمر كيفما تشاء ومتى تشاء ضد الخطيئة؟

هذا غير معقول. أساساً نحن لا نتفق مع العلماء الذين يقولون بأن أسباب الهزّات الأرضيّة هو فقط الاهتزازات والانزلاقات الصخرية التي تحدث في باطن الأرض فتضرب المنطقة المحيطة بها دون المناطق الأخرى معتمدين في تحليلاتهم على مقياس رختر فقط، وكأن اللّه ليس له علاقة بالموضوع فلا يعطون أي اعتبار لمشيئة اللّه التأديبية بالكليّة، نحن لا نتفق مع هذا الرأي لأن العلماء الذين لا يعرفون اللّه لا يعرفون أنه هو الذي يقرر هذه الأمور وهو الذي يحدِّد قوّة الهزّة ومكانها، ويتمسّكون بتفسيراتهم حتى وإن كانت حساباتهم في منطقة مدينة تسالونيك كانت قد انقلبت عليهم، ولكن نحن المؤمنين نقبل بأن الظواهر الطبيعية وقوّتها تكون محسوبة من إرادة اللّه الذي

يضبط كل المسكونة بانسجام، ولحسن الحظ أن اللّه قد فتح فم أحد العلماء الأتراك وقال أن الكتاب المقدس مليء بمثل هذه الأمثلة».

"آه" – تنهَّد الشيخ – "نحن غارقون في عدم الإيمان، ونحن عراة من إحساس المحبّة ومن الشعور بأمان اللّه، لذلك نسمح لأنفسنا بأن نفسِّر الأمور بدون خجل وبدون تحفُّظ، وفي نفس الوقت نحن خسرنا الإحساس بالخطيئة وخسرنا القداسة، فمن الطبيعي أن نتساءل هل من المعقول أن اللّه يدمِّر بشراً ومدناً ويجلب ألماً وحزناً وعقاباً ويهدم بيوتاً ويصنع أموراً محزنة عظيمة؟ وأيضاً كم هي خطايانا حتى نتوب أو جلدات تأديبية وأيضاً أولادنا وأطفالنا ما ذنبهم أن يتحملوا بأن يتشردوا بعيداً عن بيوتهم؟ أي وبمعنى آخر هل خطايانا تستحق

كل هذا الدمار؟

ولكن ماذا نقول؟ ما هي الإجابة التي يجب أن نقولها لهم وهم عندهم جهل ولا يدركون ما يقولون، أظن أن الذين يقفون خلف هذه الأقوال يوجدون داخل ظلام دامس. وواضح كونهم لا يعرفون مدى بعدهم عن اللّه الذي بسببه تم هذا القصاص التأديبي. إن كنّا نحيا في الفلك الشيطاني الخاطئ وغير مبالين بما نحن عليه، هذا يعني أنه لا يوجد لدينا حب لأولادنا وأننا لا نهتم لخلاص أنفسنا. إن عدم الإيمان هو العمى بحد ذاته، كيف يرى الإنسان اللّه الموجود قربه عندما يكون أعمى؟ أو كيف سيعرف الإنسان معنى الخطيئة إن لم يتذوق الفضيلة التي تفتح عيونه الروحيّة؟ وبالتالي كيف سيرى اللّه؟ وإن كان اللّه هو الضابط لكل هذه الأمور، فإن الذي

لا يعرف اللّه كيف سيكون مقياسه للأمور الروحيّة أو الإنسانية؟"

٢١- المحبَّة في اتحاد الطبيعتين

لقد تتبعت كل ما قاله شيخنا الحكيم باهتمام واندهلت من تحليله العميق الذي قاله في هذه المواضيع الخفيّة، التي إن أراد أي أحد جاهل في الحياة الروحية والذي لم يتذوق في حياته أفعال النعمة التي للروح القدس، إن أراد أن يفهم هذا الكلام فعليه ان ينقّي ذهنه أولاً ويوسع قلبه ويُلهب نفسه عشقاً ويرفع ذهنه لرؤية النور الإلهي، حينها يستطيع أن يُظهر هذه الأمور الروحية للعالم.

"هل يستطيع عديم الخبرة أو الجاهل روحياً أن يعرف هذه الأمور عن طريق العلم

والدراسة؟" طبعاً لا ولكنّه يقدِّم فقط رأياً فكرياً، أما بالنسبة للآباء القديسين فإن إجاباتهم تكون ناتجةً عن خبراتهم الروحيّة في تذوق النعمة الإلهية واشتراك نفوسهم في الإلهيات.

وكوننا كنّا قد تطرقنا لموضوع العناية الإلهيّة والحب الإلهي تجاه الخليقة كلّها وخصوصاً تجاه وريثه (الإنسان المسيحي) الذي سيرثه أيضاً مع المسيح، ولكننا حينذاك لم نشرحها بشكل كافٍ لذلك طلبت من شيخنا الحكيم أن يفسِّر لنا أكثر عن هذه المشكلة اللاهوتية.

"بكل بساطة إني أرغب بأن أقول لك ولمرات عديدة أيها الأخ المحبوب ثيوكليتوس عن محبّة اللّه التي تربط العلاقة الوثيقة بين العناية الإلهية والموجودات وكما يقول أحد القديسين أن اللّه

بسبب محبته تشبّه بعبيده، وبسبب محبته يتألم من أجل معاصينا، وبسبب عشقه لنا يقول القديس يوحنا الحبيب "لأَنَّهُ هكَذَا أَحَبَّ اللّهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ." (يوحنا ٣:١٦).

وسأقول لكم وجهة نظر لاهوتية لأحد الآباء القديسين حتى تفهموا بعمق محبّة اللّه للإنسان: "يُعتبر الاتحاد الذي حقّقه المسيح بين الطبيعتين الإلهيّة والإنسانية أكبر (أقرب) من اتحاد أقنوم الابن بالآب، فبالرغم من أن الابن والآب متّحدان بالجوهر والطبيعة أي لهما نفس الطبيعة والجوهر فيما بينهما، إلا أن أقنوم الابن يتميّز شخصياً عن أقنوم الآب بصفته أقنوماً ثانياً، ولكن هنا في سرّ التدبير الإلهي

أي التجسد نرى اتحاداً أقنومياً مع الطبيعة الإنسانية قد تحقق للابن دون الآَب وأصبحت الطبيعة الإنسانية تابعة لأقنوم الابن شخصياً الذي صار واحداً بطبيعتين (إلهية وإنسانية). تخيّلوا إذاً عظمة الإنسان الذي بالإضافة إلى مجده الأول أصبح عنده مجد اتحادٍ أقنومي مع اللّه. ما أعظم هذه العناية التي للّه في منطق مخلوقاته!

٢٢- اللّه عامل وشريك في العمل

كما يقول الآَباء ذوو العمق اللاهوتي أن عناية اللّه تشمل في مضمونها التحديد المسبق للأمور، وبالتالي فإن العناية الإلهية تشمل الموجودات إلى نهاية مؤقتة، وبعد ذلك إلى نهاية أبدية، وما هو فوق الطبيعي، وكون هذه العناية

أزليّة فهي تمتد إلى كل الخليقة، لأن الخليقة كلها بحاجة إلى هذه العناية قبل زوالها وبالتالي فإنها تخلق الكل. ولذلك فإنه لا يوجد للعناية الإلهية نهاية كما هو الحال أيضاً مع الملائكة الخالدين، كذلك نحن البشر الذين سنصبح بالنعمة الإلهية خالدين في خلود الصالحات الأبدية".

ويستمر الشيخ الناسك بالحديث حول العناية الإلهيّة أنه بالإضافة إلى تماسك وثبات المخلوقات ويقصد بها ان العناية الإلهية تحافظ على بقاء جواهر هذه المخلوقات وقواها من خلال الإغاثة والنجدة المستمرّة لهذه المخلوقات، بمعنى آخر بحسب آباء الكنيسة أن اللّه هو عامل وشريك في العمل، بمعنى أن عنايته الإلهيّة مستمرة وبلا انقطاع في المخلوقات من خلال

قوى اللّه غير المخلوقة، وحتى يظهر القديس نيقوديموس الآثوسي إن اللّه شريك في العمل مع الموجودات ويوضّح ذلك من خلال شعب صادوم واليهود، في البداية لم يروا الملائكة كما أنهم لم يروا الرب عندما كان يعبر من أمامهم لأن اللّه حرم بصرهم من الرؤية، لذلك فإن داود قال "الصانع ملائكته أرواحاً وهو الذي أسس الأرض ..." (مزمور ١٠٤:٤-٥) "الصانع ملائكته رياحًا، وخدامه نارًا ملتهبة، المؤسس الأرض على قواعدها فلا تتزعزع إلى الدهر والأبد". يتكلم بصيغة الزمن الحاضر حتى يُظهر أن اللّه من خلال قدراته غير المخلوقة والدائمة يخلق الملائكة ويحافظ عليهم في وضعهم، وهذا يحصل أيضاً للأرض أن اللّه يصونها، والقديس غريغوريوس اللاهوتي

يقول: "هذه التي خلقها اللّه بكلمته يصونها باستمرار بواسطة قدرته".

٢٣- اللّه والإنسان في تجاذب وتبادل

ولكن موضوع العناية يمكن أن يُفهم بطريقة أوضح فقط في إطار ومجال محبَّة اللّه للإنسان وللخليقة بأكملها. أي إذا لم يعرف الإنسان مساحة وحجم محبَّة اللّه لخليقته لن يستطيع أن يفهم مدى قدرة العناية الإلهية، وأن محبَة اللّه في كل مجالاتها لم يفهمها سوى الآَباء القديسين، كل بحسب استطاعته.

أيها الأخ ثيوكليتوس إذاً على المرء أن يكون دائم الامتنان للّه طوال فترة حياته على الأرض، وعليه ألا يبكي أو يحزن طالما عَلِمَ أن اللّه حبيب لطيف وحنون مع البشر، وأنه خرج من ذاته

في عشق صالح إلى كل الخليقة، ومن صلاحه للخليقة بأكملها تتأثر كل الموجودات التي يعتني بها من أجلنا بصلاح ومحبّة وعشق. ومع أنه كإله هو أعلى وأسمى من الخليقة، إلا أنه قد انحدر إليها بطريقة غير مدركة شاملاً كل البشر في خطته الخلاصيّة من خلال قدراته غير المخلوقة، لذلك فإن اللاهوتيين يسمّونه "اللّه الغيور" لأن عنده قدراً كبيراً من العشق الصالح باتجاه مخلوقاته وعنده غيرة عليهم. وهو بهذه الطريقة يوجّه نداءاً لجميع مخلوقاته، وهكذا فإن غيرة المخلوقات متجهة نحو اللّه كما أن اللّه الغيور متجه نحو المخلوقات التي من أجلهم يعتني، وهم بدورهم يُظهرون له غيرتهم من أجله، - هذا قول القديس مكسيموس المعترف - والعناية المقدَّسة تُقَدِّم

لنا شخصياً". وهنا يستمر شيخنا وقد أورد نصًّا من القديس نيقوديموس الآَثوسي محتواه أن اللاهوتيين يسمّون اللّه أحيانا محبّة وأحيانا عاشقاً ومحبوباً. اللّه إذاً الذي يتحرك من عشقه ومحبته وكأنه يحرِّك جميع المخلوقات تجاهه، والذين هم بدورهم قابلون لهذا العشق. وحقاً، وبالدقّة يستطيع أن يقول الإنسان أن اللّه يتحرك كي يستدعي الإرادة والنيّة الصالحة المحبوبة للمخلوقات القابلة لهذا العشق، وطبيعة اللّه الجذّابة تستدعي جميع المخلوقات أن تتحرك باتجاهه. وهكذا فإن اللّه يحرِّك ويتحرَّك، ولذلك فهو يعطش كي يجعل البشر عطشى له، يحب كي يجعل البشر يحبّونه، ويعشق كي يُعشَق" (القديس ماكسيموس المعترف).

٢٤- إن حب اللّه مذهل

إنني أتذكَّر أن إنسانًا (الشيخ القديس)، قد قرأ لنا النصوص المقدّسة من الآباء القديسين بصوته الخافت وهذه النصوص قد أظهرت مقياس محبّة اللّه اللامحدودة لمخلوقاته الخالدة بالنعمة، وكان الرهبان حولنا جاهزين يسمعون هذه الكلمات الإلهيّة من الشيخ بافتتان وذهول ومحبّة.

وقد جاء الآن في فكري كلمة قيِّمة للقديس ديونيسيوس الآريوباغي يقول فيها: "ان العشق الإلهي مذهل، لأنه لا يترك المعشوقين يتبعون لذواتهم بل لعاشقيهم". هذا ما حدث بالضبط مع الرسول بولس المنحدر من عشق إلهي فكان يشعر روحياً بالقوّة المذهلة والقدرة

الإلهيّة وقال كعاشق حقيقي: "مَعَ الْمَسِيحِ صُلِبْتُ، فَأَحْيَا لاَ أَنَا، بَلِ الْمَسِيحُ يَحْيَا فِيَّ. فَمَا أَحْيَاهُ الآنَ فِي الْجَسَدِ، فَإِنَّمَا أَحْيَاهُ فِي الإِيمَانِ، إِيمَانِ ابْنِ اللّهِ، الَّذِي أَحَبَّنِي وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِي". (غلاطية ٢:٢٠) وهو نفسه يقول في مكان آخر وهو في حالة اختطاف أنه لم يعش حياته الشخصيّة وإنما حياة المسيح كحُبٍّ هائل جداً (هذا موجود في كتاب اللاهوت النسكي).

وكي أنهي موضوع محبَّة اللّه غير المحدودة التي هي نفسها العناية الإلهية، أردتُ أن أُكمل ما قاله الشيخ بكلمات أخرى.

٢٥- إن قدرات اللّه مستمرّة

يوجد للكنيسة تقليد لاهوتي أرثوذكسي، هذا التقليد إما أن يُعاش وبالتالي يستمر وإما أن يُهمل وبالتالي يسقط شكلياً في اللاوجود، وفجأة يظهر عبر التاريخ إنسان يحيا هذا التقليد ويمارسه ضمن حياته الملائكية فيعيد بالتالي إحياءه وإظهاره مرة أخرى للوجود بعد عصور من الصمت، تماماً كما حصل في القرن الرابع عشر مع القديس غريغوريوس بالاماس في لحظات كانت مظلمة، مثل هذا القديس يعيد إحياء اللاهوت المعاش كما حدث معه في نهاية العصور البيزنطية، فيُظهر غنى التعاليم اللاهوتية، هذا اللاهوتي العظيم كما رأيناه في نهاية العصر البيزنطي.

مركز ومحور تعاليم القديس غريغوريوس

بالاماس اللاهوتيّة يتمحور في التمييز بين قدرة اللّه غير المخلوقة وجوهره، وحول هذا الموضوع يدور كل لاهوت القديس غريغوريوس بالاماس وفكره واختباره، إن أراد شخص أن يبحث بإصرار في هذا التجدُّد اللاهوتي من خلال هذا اللاهوتي الآثوسي ويرى التقليد الكنسي ويريد أن يكتشف مبادئ هذا اللاهوت ونتائجه الأخروية، أتظنون أنه يستطيع؟ هذا ما شدَّد عليه شيخنا: كيف يكون التقرّب إلى اللّه وكيف تكون علاقته مع البشر؟ كيف تكون شركة المحبّة معه ومع الخليقة كلِّها؟ وكيف هي قدراته غير المنقطعة في محافظته على كل الكائنات؟ وماهية عطائه النعمةَ المستمرة لمستحقيها؟ يكفي الإنسان أن يتغير لتصير مرآة نفسه نظيفة حتى تشع كما هي المرآة التي تعكس بضوء مبهر

أشعة الشمس. إن انكسار الاشتراك الحقيقي مع اللّه من قبل المخلوقات من خلال التقليد الأرثوذكسي يعادل الانفصال عن اللّه، لذلك فإن المفسّر اللاهوتي القديس غريغوريوس بالاماس الذي كان باستمرار مشتركاً بالنعمة، كان يقول للهرطوقي برلعام كلامبرو* الذي كان مضاداً له كونه يفتقد لخبرة النعمة: «إن أنت أزلت الشيء الذي يربط بين جوهر اللّه الذي يظهر لنا من خلال قواه الإلهية التي يشترك بها الإنسان، أي أن العلاقة المباشرة بين اللّه والبشر إن لم تحصل من خلال قدرات اللّه الإلهية وغير المخلوقة، حينها ستُدمَّر هذه العلاقة (بين اللّه والإنسان) وستُخلق هوّة غير

---

* برلعام كلامبرو: كان يمثِّل العقيدة اللاتينية في الحوار وكان يؤمن بأن نعمة اللّه مخلوقة ونور اللّه مخلوق.

مجسّرة بين اللّه والبشر، لأن جوهر اللّه لا يمكن الاشتراك به، وبالتالي ستُدمَّر العناية المستمرَّة من قبل اللّه تجاه البشر كونها صادرة من قدراته وليس من جوهره.

حينها ستخلق حالة تراجيدية لا تطاق ناتجة عن انقطاع العلاقة بين اللّه والبشر، لذلك يقول القديس غريغوريوس بالاماس إن الذي كان يحيا في النور والنعمة الإلهية غير المدركة يقول: «كون إله برلعام أي إله اللاتين بعيداً عن البشر لا يمكن الاشتراك به ولا الاقتراب منه، ولا يتحرك بالضرورة» حينها يجب ان نطالب بوجود إله آخر، ليس فقط له وجود وكامل بذاته ومكتفٍ بذاته فحسب، بل وأيضاً صالح... بكلام آخر يجب أن نطالب بوجود إله نشترك معه، ويشترك في حياة كلٍّ منَّا بقدر المستطاع،

وأن نكون نسبياً مشتركين في حياته الآن وبعد مماتنا نصبح آلهة.

٢٦- لا يمكن للّه أن يكون موجوداً دون محبة ودون قدرة كاملة.

الآن تتلاشى النظريّة التي تقول بأن اللّه بعيد عن الانسان وعن الخليقة المحيطة. الكنيسة التي تعظ بالحضور الأبوي للّه، لا تعبّر عن وجهات نظر فلسفية ولا تخلق أنظمة نظرية، ولا تضع نظرية في تاريخ الشعوب، ولكنها تضع شهادة لخبرة جامعة تؤكد وتثبت فيها أحداث وحقائق ملموسة وحالات موجودة وتبشّر بالاتحاد الأقنومي مع اللّه والإنسان الذي قد تحقق بالتجسد. وهو موضوع محبّة اللّه التي هي المقياس والعمق والمساحة والجمال الذي

أعطاه على الصليب، وفي القيامة والصعود، والذي أجلسنا معه من خلال طبيعته البشرية على العرش الأبدي.

اذاً فإن اللّه يُعتبر بالنسبة للإنسان بمثابة الشمس التي تُنير وتدفئ، ونحن نشترك في قدراته، ومع أنه بإمكان الإنسان أن يتجنَّب الشمس الماديّة لو أراد ذلك، ولكن إحسانات أشعة الشمس الإلهية ليس بمقدور الإنسان أن يتجنبها. هنا تكمن عظمة اللّه التي لا يستطيع اللسان أن يصفها، وكم من أشكال الشرور التي يتغير إليها الانسان، إلّا أن اللّه لا يتغير ويبقى كما هو، محبّة. لذلك يريد أيضاً من مخلوقاته ألا تحيد عن الصلاح، فتبارك من يشتمها محبَّةً لأعدائها، وتعمل الصلاح لكل من يكرهها، ومصليةً لكل من يسيء إليها كما هو

الآب السماوي الذي يشع شمسه على الأشرار والصالحين ويُمطر على الأبرار والظالمين. "لِكَيْ تَكُونُوا أَبْنَاءَ أَبِيكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، فَإِنَّهُ يُشْرِقُ شَمْسَهُ عَلَى الأَشْرَارِ وَالصَّالِحِينَ، وَيُمْطِرُ عَلَى الأَبْرَارِ وَالظَّالِمِينَ". (متى ٥:٤٥).

والآن وبشكل طبيعي يُطرح السؤال التالي: هل من الممكن أن يحدث بشكل مفاجئ وجماعي للمؤمنين أو في حدود المدينة أو في مدينة كبرى أو على نطاق الأمّة بكاملها حوادث مفجعة ومؤلمة لتصل لدرجة المصائب في أراضي اللّه الواسعة؟

إن كان هذا يحدث فهذا يعني أن كل شيء يعمل إما في مجال محاربة الشيطان المستمرة لنا من خلال الأمراض التي تصيب طبيعتنا البشرية، أو المنافسة أو الصراعات بين البشر،

أو في مجال الطبيعة غير الناطقة التي تئن وتتمخض، وهذا مستبعد بالنسبة للمؤمنين. ولكن السؤال الوجيه هو: ماذا ينقص اللّه؟ هل ينقصه المحبّة؟ أوهل ينقصه القدرة الكاملة؟ هل يوجد نواقص في اللّه؟ إذا كان في اللّه نواقص أو عيوب فماذا ستكون طبيعة هذا الإله؟ ولكن المجد لصلاح اللّه غير المحدود، المجد لقدراته الكاملة، المجد لمحبته التي هي قدراته غير المخلوقة، وهذه القدرات تعمل بدون انقطاع على الأرض بطرق وبأشكال مختلفة، وتعمل نسبياً مع المستحقين على الأرض، وهي ذاتها تعمل في الفردوس كنور غير مخلوق، وهي ذاتها تعمل في الجحيم بشكل نار آكلة، إن اللّه غير المتحوِّل نشترك معه ونتذوقه نسبياً بقدر نوعيّة إحساس روح كلّ منّا.

٢٧- الخاتمة

إن ضعف إيمان المسيحيين الأرثوذكسيين لهذه الدرجة الكبيرة يعود إلى اعتزازهم بقداسة أجدادهم مما سبّب لهم الفتور الروحي بسبب التّباهي بالماضي دون بذل المجهود الروحي اللازم.

في الأزمنة الماضية كانت الأمور طبيعية أكثر وبسيطة وحقيقية (غير متكلفة). إن بساطة إيمان شعبنا تجاه قدرة اللّه الكليّة وصلاحه تتقبل الكثير من الألم والعذابات التأديبية على أنها من اللّه معتبرين إياها وكأنها قدرات إلهيّة تؤدِّب الأبناء الأحبّاء الذين ابتعدوا عنه.

أما الآن وقد بردت محبّة الكثيرين بسبب كثرة الشرور، صار من الصعب جداً عليهم ربط الهزّات الأرضيّة باللّه أو أنها حدثت من

قدرة اللّه بسبب محبّته لنا.

ولم يتوقف بهم الفتور إلى هذا الحد بل وصار الناس بدلاً من تحمّلهم للشدائد، صاروا يُظهرون السَّخط والشتائم، فعندما تخسر النفس تصالحها مع اللّه يصبح كل هذا جائزاً. نحن نرى حالات مشابهة، فإنهم يجدّفون على إله السموات بسبب آلامهم بدلاً من أن يتوبوا عن أفعالهم. "وَجَدَّفُوا عَلَى إِلهِ السَّمَاءِ مِنْ أَوْجَاعِهِمْ وَمِنْ قُرُوحِهِمْ، وَلَمْ يَتُوبُوا عَنْ أَعْمَالِهِمْ". (رؤيا ١٦: ١١).

كان البشر دائماً يخطئون، ولكنهم كانوا يتوبون مهما كانت خطيئتهم كبيرة، أما في هذه الأيام فإنهم يحاولون باستمرار إعطاء تبريرات لخطاياهم، وبالتالي فإنهم يرسّخون الخطايا أكثر بداخلهم فتصبح وكأنها بلا أمل للتوبة.

إن منظر أهل مدينة تسالونيك بصورته العريضة يُظهر أناساً يائسين، وكأنَّ أرض تسالونيك لم تُفهمهم بالضربات، والحدث الذي صار حسّياً أمام عيونهم كان عبارة عن درسٍ روحيٍ لهم ولكن دون أن يحدث أي تغيير في أنفسهم. الكنيسة تدعو إلى التوبة ولكن قلوب الكثيرين قد غلظت.

تكمُن الأمور المحزنة بشكل رئيسي في أن عمل الشيطان الذي يعمل تحت عنوان الحضارة في العالم، وجد نفسَه في مدينة تسالونيك، وبالتالي فإن الهزّات الأرضيّة والمعاناة التي ولّدت نوعاً من أنواع الرجاء في نشوء إدانة الذات، إلا أن هذا الندم الحاصل من إدانة الذات فتح المجال للنفس بأن تهبِط إلى ما دون الضمير ليشعر به وكأنه كابوس أو حلم مزعج،

فللأسف لجأنا إلى حلم آخر مخادع كي نشعر بالارتياح، دون أن نلاحظ بأننا قد انحرفنا عن إيماننا الأرثوذكسي، لقد فقدنا الأخلاق وحتى لطفنا وانتماءنا فقدناهما.

والآن لدينا حاجة ملحَّة لتعلُّم المسيحيّة، مع أنه عمل صعب للغاية كون المتعلمين والمعلِّمين واقعين تحت تأثير التيارات السلبيّة التي تُبطل العمل الروحي، لذلك وبالموازاة مع عمل الكنيسة علينا أن نهتم ونضع الأساسات والجذور للإيمان المسيحي المستقيم الرأي، حتى تتجذّر تعاليم تجسُّد اللّه الكلمة وتشرح لنا مدى حاجتنا للصليب والقيامة.

ويعتبر أيضاً من الضروري أن نتذكَّر بعض أنواع عقاب اللّه عندما ينعدم الإيمان، وعلى الإنسان أن يتذكر كيف كان اللّه عبر التاريخ

يعاقب الناس عقاباً تأديبياً عندما كانوا يعصون أوامره.

وأيضاً (أيوب ٩:٥-١٠) و (عاموس ٩:٥) و (ناحوم ١:٥) و(أشعياء ١٣:١٣) و (أشعياء ٢٤:٩-٢٠) و (إرميا ٢٣:١٩) و (إرميا ٢٨:٢٩).

لقد فتح تجسُّد الرب حقبة جديدة في العلاقات بين اللّه والإنسان الذي أعاده إلى مجده الأول، وقد اشتُري الإنسان وتنقى واستنار وقد تبناه اللّه وخلُص وأصبح هيكلاً للروح القدس.

هكذا خُلِق الإنسان أثمن جميع مخلوقات اللّه الذي يهتم به بحنان لا يدرك، ولكن من وسائل إعلان المحبَّة من أجل الخلاص للإنسان يستخدم اللّه عصاه التأديبية، والتي تشمل الهزّات الأرضيّة والأوبئة واضطرابات

الطبيعة، أو تجارب متنوعة أو أسْر أو حروب ومجاعات أو جفاف، وكما هو الحال في الهزّات الأرضيّة كذلك أيضاً في أشكال الاضطرابات في الطبيعة والتي تسبّب الدمار أو الحوادث أو الجرحى ...إلخ

تبدو الظواهر الطبيعية وكأنها متناسقة مع بعضها البعض ضمن نظام متكامل، أما العامل الذي يغيِّر نظام الظواهر الطبيعية فهو اللّه، وهذا بحسب تعاليم الكنيسة كما شرحنا سابقاً. يعمل اللّه به من قبل محبته كي يؤدب أبناءه حتى يسيروا بحسب وصاياه.

يظهر ومن ضمن أعمال العناية الإلهية بأن تتأثر حريّة الإنسان أو يُضغَط عليها، لأجل ذلك تُشرح حدود العلاقة ما بين اللّه وحريّة الإنسان بحسب تثمين وجود الإنسان، لأن

مشكلة حدوث التجارب المتنوعة لها علاقة بالعملية التأديبية من قِبَل اللّه، وبالتالي كان من الضروري أن يوضّح موقع أو دور الشيطان وحدوده وأفعاله، وعندما نجابه هذه التجارب ونخرج منتصرين يكون الشيطان – دون أن يعلم – قد قدَّم فائدة للمؤمنين، لأنه بعد قيامة المسيح أصبح الإنسان أقوى من ذي قبل وأصبح الشيطان أضعف وهذا يعتمد على تصرفات الإنسان تجاه المسيح الفادي.

وبشكل عام، أنه لمن المهم أن تقرأ النصوص الواردة في هذا الكتاب، وخصوصاً التي تتكلم عن الطبيعة في الفصل رقم ١٨ وعمل التجارب. إن أقوال الآبَاء القديسين وخصوصاً في المواضيع التي تتحدث عن المصائب العامة تعطينا التفسير الحي والصحيح والملخّص

والذي يعتمد في حديثه على الكتب المقدسة.

إن الناسك الذي شرح لنا موضوعنا يتطرَّق في نهاية كلامه إلى مواضيع لاهوتية صلبة، ليس في محبّة اللّه التي في كثير من الأحيان لا ندركها فحسب، وإنما يطرح مواضيعَ قد تكون بسيطة كالتي نفكِّر فيها ونحياها، وقد تكون عالية جداً تصل إلى الفضائل الإلهيّة. ويدخل إلى مواضيع العناية الإلهية وكأنها عرض للعشق الإلهي، وهذه العناية تهتم بكل الخليقة، وهذا العشق الإلهي يجذب الجميع إليه وهو يُجذب أيضاً إلى خليقته، هذا اللاهوت النسكي الأرثوذكسي.

مع شرح العشق الإلهي وحركة اللّه، تتبدد جميع الخيالات التي تقول بأن الطبيعة تخضع لنواميس ثابتة بعيدة عن مشيئة اللّه، وحتى

ذوي الإيمان الوسط (أي الناس ذوي الإيمان الضعيف المتقلقل بين الإيمان باللّه وبين التفكير المادي) الذين يعتبرون أن الطبيعة تثور من ذاتها وعلى كل من فوقها كونهم معتمدين على آية «ان الطبيعة تئن وتتمخض» كونها موجودة تحت نتيجة خطيئة آدم وحوّاء، وكونها أيضاً بحاجة إلى الخلاص، فنجيبهم: "نعم، ولكن ذلك كلّه يحدث بإرادة اللّه".

لذلك نشدِّد في هذا الكتاب أنه لا يمكن للإله أن يكون موجوداً بدون محبَّة وبدون وجود قدرة إلهيّة كاملة، وأن نُعزي سبب الهزّات الأرضيّة التي صارت في تسالونيك إلى الطبيعة غير العاقلة، هذا يقود إلى الشك في قدرة اللّه وفي محبَّته غير المحدودة، وإلى إنكار المجالات التي عاشها الآباء القديسون والخبرة في

الروح القدس. إن الآباء تعلَّموا بالآلام المباركة ماهيّة ملكوت السموات ودخلوا إلى أعماقها.

لنطلب من اللّه أن ينير ظلامنا حتى نعرفه أكثر ونحبّه، وحينها نعرف كم هو يحبنا. وعندها سنعرف كل شيء، وحتى ذلك الحين من المفيد لنا أن نتوجَّه إلى الآباء القديسين الذين يشكّلون إناءً للروح القدس ويعلِّموننا ما هو مفيد لأنفسنا، وهم يشهدون لمحبَّة اللّه غير المحدودة أمام جميع خليقته.

آمين

للراهب الآثوسي ثيوكليتوس من دير ذيونيسيوس
تم الانتهاء من ترجمته بعون اللّه بتاريخ ١/٥/٢٠٢٠
عمّان
الأيكونومس د. إبراهيم دبّور

الفهرس

	صفحة
مقدمة سيادة المطران خريستوفوروس	٥
المقدمة	١١
١- مع ثلاثة نسّاك	١٧
٢- شعبنا المضطرب	٢٠
٣- المسيحيّون القدامى ونحن	٢٦
٤- الخطيئة والهزات	٣٠
٥- الأيام الأخيرة	٣٥
٦- اللّه والعالم	٤٢
٧- الخليقة الأولى والسقوط	٤٤
٨- العالم القديم	٤٧
٩- العالم المتوسط	٤٩
١٠- الحقبة التي سبقت الإنجيل	٥٣
١١- قمّة المحبّة الإلهيّة	٥٧
١٢- المسيح والخلاص ونحن	٦٠
١٣- استيضاحات هامّة	٦٣

١٤- حوار مع المسيح	٦٦
١٥- الثمن في أن أكون	٧٠
١٦- السماح التهذيبي	٧٤
١٧ - الشياطين وقوّتهم	٧٨
١٨- المصادر والعوامل المساعدة على التجارب	٨٣
١٩- عندما ترى مدينة مدمّرة	٨٧
٢٠- إن لم تتوبوا تهلكون	٩١
٢١- المحبَّة في اتحاد الطبيعتين	٩٧
٢٢- اللّه عامل وشريك في العمل	١٠٠
٢٣- اللّه والإنسان في تجاذب وتبادل	١٠٣
٢٤- إن حب اللّه مذهل	١٠٦
٢٥- إن قدرات اللّه مستمرّة	١٠٨
٢٦- بدون محبة وبدون قدرة كاملة اللّه لا يوجد	١١٢
٢٧- الخاتمة	١١٦